



حماری قالی

توفیق الحق سمیم



توفيق الحكيم

حماری قال لی

[طبع للمرة الأولى سنة ١٩٤٥]

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحاء

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السخار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

- ١ — محمد ^{عليه السلام} (سيرة حوارية) ١٩٣٦
- ٢ — عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
- ٣ — أهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣
- ٤ — شهر زاد (مسرحية) ١٩٣٤
- ٥ — يوميات نائب في الأرياف (رواية) ١٩٣٧
- ٦ — عصافير من الشرق (رواية) ١٩٣٨
- ٧ — تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
- ٨ — أشعب (رواية) ١٩٣٨
- ٩ — عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
- ١٠ — حماري قال لي (مقالات) ١٩٣٨
- ١١ — براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩
- ١٢ — راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
- ١٣ — نشيد الأنشاد (كما في التوراة) ١٩٤٠
- ١٤ — حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
- ١٥ — سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
- ١٦ — من البرج العاجي (مقالات قصيرة) ١٩٤١
- ١٧ — تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
- ١٨ — بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢
- ١٩ — سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣
- ٢٠ — زهرة العمر (سيرة ذاتية — رسائل) ١٩٤٣
- ٢١ — الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

— ٤ —

٢٢	— شجرة الحكم (صور سياسية)	١٩٤٥
٢٣	— الملك أوديب (مسرحية)	١٩٤٩
٢٤	— مسرح المجتمع (٢١ مسرحية)	١٩٥٠
٢٥	— فن الأدب (مقالات)	١٩٥٢
٢٦	— عدالة وفن (قصص)	١٩٥٣
٢٧	— أرى الله (قصص فلسفية)	١٩٥٣
٢٨	— عصا الحكيم (خطرات حوارية)	١٩٥٤
٢٩	— تأملات في السياسة (فكر)	١٩٥٤
٣٠	— الأيدى الناعمة (مسرحية)	١٩٥٩
٣١	— التعادلية (فكر)	١٩٥٥
٣٢	— إيزيس (مسرحية)	١٩٥٥
٣٣	— الصفقة (مسرحية)	١٩٥٦
٣٤	— المسرح المنوع (٢١ مسرحية)	١٩٥٦
٣٥	— لعبة الموت (مسرحية)	١٩٥٧
٣٦	— أشواك السلام (مسرحية)	١٩٥٧
٣٧	— رحلة إلى الغد (مسرحية تنبؤية)	١٩٥٧
٣٨	— السلطان الحائر (مسرحية)	١٩٦٠
٣٩	— ياطالع الشجرة (مسرحية)	١٩٦٢
٤٠	— الطعام لكل فنم (مسرحية)	١٩٦٣
٤١	— رحلة الربيع والخريف (شعر)	١٩٦٤
٤٢	— سجن العمر (سيرة ذاتية)	١٩٦٤
٤٣	— شمس النهار (مسرحية)	١٩٦٥

٤٤	— مصير صرصار (مسرحية)	١٩٦٦
٤٥	— الورطة (مسرحية)	١٩٦٦
٤٦	— ليلة الزفاف (قصص قصيرة)	١٩٦٦
٤٧	— قالبنا المسرحي (دراسة)	١٩٦٧
٤٨	— بنك القلق (رواية مسرحية)	١٩٦٧
٤٩	— مجلس العدل (مسرحيات قصيرة)	١٩٧٢
٥٠	— رحلة بين عصرين (ذكريات)	١٩٧٢
٥١	— حديث مع الكوكب (حوار فلسفي)	١٩٧٤
٥٢	— الدنيا رواية هزلية (مسرحية)	١٩٧٤
٥٣	— عودة الوعي (ذكريات سياسية)	١٩٧٤
٥٤	— في طريق عودة الوعي (ذكريات سياسية)	١٩٧٥
٥٥	— الحمير (مسرحية)	١٩٧٥
٥٦	— ثورة الشباب (مقالات)	١٩٧٥
٥٧	— بين الفكر والفن (مقالات)	١٩٧٦
٥٨	— أدب الحياة (مقالات)	١٩٧٦
٥٩	— مختار تفسير القرطبي (مختار التفسير)	١٩٧٧
٦٠	— تحديات سنة ٢٠٠٠ (مقالات)	١٩٨٠
٦١	— ملامح داخلية (حوار مع المؤلف)	١٩٨٢
٦٢	— التعاادلة مع الإسلام والتعاضدية (فكر فلسفي)	١٩٨٣
٦٣	— الأحاديث الأربعة (فكر ديني)	١٩٨٣
٦٤	— مصر بين عهدين (ذكريات)	١٩٨٣
٦٥	— شجرة الحكم السياسي (١٩١٩ — ١٩٧٩)	١٩٨٥

كتب المؤلف نشرت في لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت
عضو الأكاديمية الفرنسية في دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى
الإنجليزية في دار النشر (بيلوت) بلندن ثم في دار النشر (كروان)
بنيويورك في عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثري كنتنتز بريس)
واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٢٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية
في واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب في الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩
(طبعة أولى) وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفي عام ١٩٧٤ و ١٩٧٨
(طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية
عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في دار (هارفيل) للنشر بلندن
عام ١٩٤٧ — ترجمة أبي إيمان — ترجم إلى الأسبانية في مدريد عام ١٩٤٨
وترجم ونشر في السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١
وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دي فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما
عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٤٦ .
عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

- ونشر طبعة ثانية في باريس عام ١٩٦٠ .
- عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس بعنوان (مذكرات قضائي شاعر) عام ١٩٦١ .
- بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثري كنتنتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .
- سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (كنتنتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .
- نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- بيت القمل : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٢ .
- الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثري كنتنتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .
- شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثري كنتنتز) واشنطن عام ١٩٨١ .
- صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثري كنتنتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

- الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
 واشنطن عام ١٩٨١ .
- الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
 واشنطن عام ١٩٨١ .
- شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
 واشنطن عام ١٩٨١ .
- الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز) واشنطن
 عام ١٩٨١ .
- الشیطان في خطر : ترجم بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
 وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٦٣ .
- العش الهادئ : ترجم بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٣ .
- دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية في لندن هاينان عام ١٩٧٣
 وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٥٣ .
- لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٦٠ .
- وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتز بريس) بواشنطن عام
 ١٩٨١ .
- الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٦٠ .
- السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية في لندن هاينان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية في لندن عام ١٩٦٦ في دار نشر أكسفورد يونيفرستي بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .
مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .
مع : كل شيء في مكانه .
السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاي (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ^{صلى الله عليه وسلم} : ترجمة د . إبراهيم الموجي ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .
المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦
ونشر روتن ولوننج بيرلين .

عودة الوعي : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلي ووندر ونشر دار ماكملان — لندن .

روى عن النبي أنه قال :

« إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً »

عن أبي هريرة

من هو « حمارى »

الخمارة له فى حياى شآن ... إنه عندى كائن مقدس كما كان الجمران عند المصريين القدماء ... لقد عرفته منذ صغرى فى صورة جحش جميل اشتراه لى أهلى بثلاثين قرشاً ، وجعلوه لنزهتى فى الريف ... وكانت له برذعة صغيرة حمراء لا أنساها ... وكنا خير رفيقين ... لا نفترق إلا للنوم ... فقد كان فى مثل سنى ... أى فى طور الطفولة من فصيلته ، كما كنت أنا فى طور الطفولة فى جنسى .

على هذه الحال من المودة عشنا حتى فرقت بيننا الأيام ، فذهبت أنا إلى مدارس الحضر ، وبقي هو فى ريفه ... وعدت فى الصيف بعد أعوام ؛ فوجدت الحياة قد تنكرت له ؛ فالبرذعة الحمراء قد نزعّت من فوق ظهره ، وألقى بها فى مكان مهجور ، ووضع مكانها « غبيط » يحمل فيه التراب والسماد والطين ... فدنوت منه ، ومسحت رأسه المعفر بكفى ، فنظر إلى نظرة حزينة ، وكأنه يقول لى :

— « أرايت ؟ ... لقد ذهبت الطفولة وولت أيام الهناء ؟ »

وحزّت تلك النظرة فى قلبى ، ونظرت إلى من حولى قائلاً :

— « أما كنتم تستطيعون أن تجنبوه هذا العمل الشاق المهين ...

وتجعلوه على الأقل للركوب ! ... »

وكانه فهم عنى ، فقد رفع رأسه نحوى ، وكأنه يقول :

— « لا فائدة ! ... لا تجهّد نفسك معهم ... ما من أحد غيرك يعرف

لى قدراً! ... » ولم تستطع شفاعتى أن تغير شيئاً مما كتب عليه ... فتركته لمصيره ... ثم بلغت مرحلة الشباب ، وفرغت من الدرس ، واشتغلت بتأليف الروايات التمثيلية ... فلم يفتنى أن أجعل من الحمار شخصية فى رواية لى ؛ فظهر على المسرح ولم أره للأسف ، فقد كنت غادرت مصر وذهبت إلى أوروبا فجاءتنى الأخبار بأن الحمار أدى واجبه على أكمل وجه ، وقام بدوره فى الرواية على نحو يستحق الإعجاب ... ولكنه نظر بعد ذلك إلى جمهور المشاهدين نظرة عميقة ؛ ثم فعل فعلة غير لائقة لوثت خشبة المسرح ... وخرج بين سخط الممثلين وهرج النظار والمتفرجين ... وقد بلغنى أنه ضُرب عندئذ وطرِد وأهين ، ولو كنت أنا حاضراً لدافعت عن ذلك المسكين .

وأغلب ظنى أنه أدرك بغريزته أن الجمهور لم يفهم الرواية ... فتاب عنى فى إظهار احتقاره له بالطريقة التى رآها مواتية .

ومضى نحو عشرين عاماً ، فرأيت الجحش مرة أخرى فى شوارع القاهرة ، واشتريته بثلاثين أو خمسين قرشاً مرة أخرى ولكن هيهات ... لقد كان هو فى طفولته وأنا فى كهولتى ... فلم يكن بيننا غير صمت طويل انتهى بموته ... أترأه أدرك بسليقته أن أوان اللعب قد فات بالنسبة إلّى . . . فآثر أن يتركنى سرياً قبل أن أستكشف بنفسى هذه الحقيقة فأحزن ؟ ... لقد سميت « الفيلسوف » وقد علمنى أشياء كثيرة بمجرد صمته وارتفاعه عن لجج هذا البحر الخضم : بحر السخف الإنسانى . . .

ثم رأيت الحمار بعد ذلك فى الريف أثناء زيارة قصيرة فى أحد الأعياد ... ذهبت للراحة بضعة أيام ... وقد خطر لى أن أصطاد السمك فى جدول غير بعيد — فسرت على أقدامى مع بعض الفلاحين يحملون لى

عصا الصيد ، وساء تقديري لقوة احتيالي للسير ... فقد شعرت بالجهد والتعب بعد مائة خطوة ... ولم يجدوا الى حيلة غير وضعي على صهوة حمار من حمير التراب كان يعمل في حقل قريب ... ولم أر والله في حياتي أتعب ولا أشقى من ذلك الحمار ... كان الدم يقطر من ظهره ؛ لثقل « الغبيط » وهزال جسمه ، وبروز عظمه ... ولا أحد يرحم ... وكان يتضور من الجوع ويمد بوزه إلى كل عود أخضر يجده في الطريق فلا يلقى غير اللكم ممن يقودونه ، ولا يظفر بغير اللطم ... لقد كان ذلك الحمار ملكا لبعض المستأجرين الفقراء من الفلاحين ، الذين لا يملكون للحمير قوتاً ... ولا يدخرون ما عندهم من « العليق » إلا للجاموسة والبقرة التي تدر اللبن ... أما الحمار فهو في نظرهم لا يساوى أكله ... وهو يذكر عند المهمة العنيفة والعمل الشاق ... ولكنه ينسى عند حلول الأكلة النظيفة ؛ فعلى المسكين إذن أن يلتقط ما يصادف في طريقه من عشب مهمل أو وزق زرع متروك ... وليتهم مع ذلك يدعونه يفعل ، فهم يدفعونه في ظهره بالعصا كلما تباطأ قليلاً لالتقاط رزقه من الأرض بحجة أنه يتلكأ ويتلاكع ويتكاسل عن عمله المفروض — أما إذا خدثته نفسه اللعينة ؛ فمال برقبته على حقل للأذرة ، وفقد رشده وخرج عن وعيه ، وهرب بأسنانه عوداً منها أو كوزاً دانياً ؛ فهي الطامة التي لا تدانيها طامة ... فإن الصباح يعلو من كل جانب ويهرع أصحاب الزراعة بالهراوات ينهلون بها على المسكين وهم يتصايحون : « حوشوا الحمار نزل غيـط الذرة ! ... » .

ذلك هو الحمار الذي امتطيته ذلك العصر ... وقد وجدت مشيته أبطأ من مشيتي ... ولكن فهمت السبب ؛ فتركته يسير كما يشاء ،

ويلتقط ما شاء ... ونهرت كل من أراد بالضرب حثه على الركض ، بل
لقد فعلت أكثر من ذلك ؛ لقد تركته — وقد شعر ولا شك بتسامح راحبه
— يمد فمه إلى كوز ذرة دنا من طريقه ... وشرع الفلاحون في الصباح
فأسكتهم في الحال بقولى :

— « اتركوه !... اتركوه !... » .

فسكتوا مرغمين ... أما هو فقد طحن الكوز بأسنانه طحناً سمع له
خشخشة وبلغ ؛ فكان لحركة البلع في حلقه معمة ، وخيل إلى أنى أرى
الطعام يحدث عنده لذة لم يحسها المسكين منذ أمد طويل ... وسار بعد
ذلك وكأن كل خطوة من خطواته تسيبحة حمد وشكر ... إلى أن بلغنا
الجدول المقصود ، فترجلت ، وأخذنا في الصيد ، وأوصيتهم أن يتركوا
الحمار يرعى الكلاً النابت على حافة الماء ... وشهد الله لقد كانت ساعة لم
ينعم بمثلها ... والله إذا أعطى فإنه يعطى أحياناً بغير حساب ... فقد تهيأ
لذلك الحمار السعيد وقبض الماء والخضرة ... فأظفره الله بالباقي : أى
الوجه الحسن فى صورة حمارة شابة كانت ترعى هى الأخرى مع بعض
خراف ونعاج على مقربة منه ... فمارعنى — وأنا مشغول بصيدى — إلا
صوت من بين الفلاحين يصيح :

— « حوشوا الحمار والحمارة ... ! »

فالتفت فإذا المغازلة على أتمها بين الحبيين ... فقلت :

— « اتركوهما !... » .

فتركوهما حتى انفصل أحدهما عن الآخر ...

وفرغت أنا من صيدى ، فركبت الحمار عائداً وهو يركض لى
كل مرجح ، فقد أكل ، وشرب ، وتنزه ، وغازل ... إنها لحظة من الهناء قد

سرنى وأسعدنى أنى أتحته له ... ولكن القدر قد جعله يدفع ثمنها غالباً ...
 فالملكتوب عليه الشقاء؛ ويجب أن يحاسب على كل فرحة تسرب إليه خلصة
 من يد القدر النائم ... ولم تمض بالفعل أيام حتى سمعت أن ذلك الحمار قد
 نفق جوعاً ، وسقط إعياء وسط الحقل ، رازحاً تحت أثقال ما يحمل من
 تراب ... فألقى الفلاحون بجثته فى المصرف ... ولم يكلفوا أنفسهم حتى
 مؤونة دفنه ، وضنوا عليه حتى بذلك التراب الذى قضى حياته التعسة
 كلها فى حمله على ظهره ... فلما بلغنى ذلك أمرتهم أن يتشملوا جثته من
 الماء فى الحال وأن يدفنوه ...
 ولست أدرى حتى هذه اللحظة أفعلا أم سخروا وكذبوا علىّ
 وتغافلوا عنه حتى جرفه التيار ...

من بين هذه الحمير الأربعة : أين حمارى الذى يحادثنى وأحادثه ؟ ...
 إنه ليس واحداً بالذات من بينها ... إنه جميعها. إنه هو كلها مجتمعة فى
 واحد ، هوروح هذه الأربعة التى عرفت ، إنه النوع بفصائله ، والفصيلة
 بصفاتهما ... إنه أى حمار ، رأيته أو لم أره ... مهما تكن ظروفه
 ومصائره ... أى حمار من تلك الحمير التى أعرف أو لا أعرف هو لى
 صديق ... أحبه وأحذب عليه ، وأفهم ما يجول فى خاطره ... وأنظر إلى
 عينيه وأصغى إليه ، فيخيل لى أن صمته الطويل قد انفرج عن حديث
 مؤنس يدل به لى ، وأسئلة طريفة يلقيها علىّ ...

حمارى والطوفان !

جلس حمارى إلى جوارى كما اعتاد ، وقال :

— أخشى أن تثور كبرياؤك ذات يوم فتترفع عن مجالسة مثلى !...
 قالها بنبرة أعرفها فى صوته ... إنه مخلوق يجيد نوعاً من السخرية ليس
 من الهين أن يُلْمَح فى كل الأحيان ... لأنه مغلف فى طيات التواضع
 والتسليم والاذعان ، ولكنى أعرف فيه قوة المقاومة وصلابة المراس ،
 وشيئاً من الاعتداد بالذات ؛ لا يظهر إلا إذا وُخِز وخِزَة تجرح نفسه ...
 لذلك أُلْجَأُ معه إلى المزاح فى القول والإغلاط فى التهكم ؛ حتى أرغمه على
 مصارحتى بكل مشاعره ... فأجبتة :

— وأنا أخشى أن يركبك الوهم ؛ فتحسب أن لافرق بينى
 وبينك !...

— لا تخف ... إن الوهم لا يركبنى أبداً ... لم يركبنى غير
 الواهين !...

— من أمثالنا معشر البشر !... أليس هذا ما تعنى ؟...
 — ما أردت أن أمس كرامتك ... إن بيننا وبينكم صلات ود من
 قديم ... لقد زاملناكم ، وركبنا معكم سفينة نوح فى عهد الطوفان ...
 فأدركت غرضه الخفى من الإشارة إلى هذا المستند التاريخى ،
 وبأدركت أقول :

— ليس هذا بدليل على الزمالة ... لقد ركبت معنا كل الحيوانات ، مما يؤكل ومما لا يؤكل ... من الأسد والفيل ، إلى الفأر والخنزير ... وقرأ تاريخ أبى الفداء تجد عليه أنه كانت للسفينة ثلاث طبقات : طبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيه الإنس ، وطبقة فيها الطير ، ولقد فكرنا نحن الإنس فيك وخفنا على أمثالك من الدواب أن يفترسها الأسد ، فدعنا نوح ربه فسلط على السبع الحمى ، فكانت أول حمى نزلت في الأرض ... ثم شكوا الفأرة لإفسادها الطعام والمتاع ، فأوحى الله إلى الأسد فعض ، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها ... وكثر أرواث مثلك من الدواب ، فأوحى الله إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل ، فغمزه ، فوقع منه خنزير وخنزيرة ، فأقبلا على الروث ... إلى غير ذلك مما حدث في السفينة وتدبرناه نحن معشر الإنس بفكرنا الناضج ، حيث لم نجد منكم معشر الحيوان والدواب غير المشاكل التى تقتضى الحل وتستوجب التدبير ... ولم نر منكم معونة ولا زمالة تهون علينا محرجات ذلك الموقف الخطير .

— لا تتكلم عن فصيلتى ... لقد كان لنا رأى فى السفينة والطوفان ... وما دمت تذكر التاريخ والمؤرخين ، فارجع إليهم ينبئوك أن آخر ما دخل السفينة من الحيوانات كان الحمار ! ...

— وما هو ، من فضلك ، رأيكم فى السفينة والطوفان ؟ ...

— لا تسألنى رأىي ؛ بل أجبنى أنت بفكرك الناضج : لماذا كان الطوفان وكانت السفينة ؟!

— لماذا ؟! للظلم والفساد اللذين كانا قد عما الأرض ... وللضلالة والطغيان ، وعبادة الأصنام والأوثان ...

— من أجل ذلك أغرق الله الأرض بما فيها من شرور وآثام ، وبمن عليها (حمارى قال لى)

من طغاة وأصنام ، إلا تلك النخبة الصالحة التي وضعت في السفينة ، لتبدأ بعد ذلك حياة أخرى يسودها الخير ، وأجيالا جديدة يقودها الحق ...
— هو ذاك ؟ ...

— وهل ساد بعد ذلك الخير ، وانتصر الحق ؟ ...

— ماذا تعني ؟ ...

— لم يقل لك مؤرخوك : إن قوم عاد كانوا أول من عبد الأوثان بعد الطوفان ؟ ... كل شيء رجع فنبت من جديد ... بعد أن غيض الماء ... وبلعت الأرض ماءها ، ورجعت الحمامة إلى نوح وفي منقارها ورقة الزيتون وفي رجلها الطين ، واخضر وجه الأرض ونبت الزرع والضرع ، والخير والشر أقوى مما كان وأخصب ...

— نعم ... نبت الشر من جديد ... أتدرى لماذا ؟ ... لأن إبليس كان قد دخل السفينة مع من دخل ، ولم يفرقه الطوفان مع من أغرق ... أتدرى كيف تسلل إبليس إلى السفينة ؟ ...

— لا ... كيف تسلل ؟ ...

— يروى عن المؤرخ ابن عباس أن إبليس دخل متعلقاً بذنب الحمار ...

— أو كان ابن عباس هذا شاهد عيان ؟ ...

— لست أدري ... إنما أحدثك بما جاء في بطون الكتب ...

— خير لك أن تحدثني برأيك أنت في نتيجة كل ذلك ؟ ...

— نتیجته أن نوحا خرج بعد ذلك إلى الأرض ، هو ومن معه من أنس ودواب ... وابتنى مذبحاً لله ، وأخذ من الطير والدواب الحلال ، فذبحها قرباناً إلى الله ، سائلاً إياه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض ... فعهد الله

إليه أن لا يعيده ، وجعل تذكراً لميثاقه إليه القوس الذى فى الغمام ، وهو قوس قزح ، الذى قال ابن عباس : إنه أمان من الغرق ، وقال آخرون إنه قوس بلا وتر : أى أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة ...
— الواقع أن الطوفان لم يحدث غير مرة ، بعد أن ثبتت قلة جدواه فى

المرة الأولى ...!

— أنت تقصد ولا شك طوفان الماء ... هذا حقيقة ... لم يحدث غير مرة ... وقد وعد الله بأن لا يعيده ... ولكنه استعاض عنه بطوفان من نوع آخر يحدث فى كل جيل مرة أو أكثر ... ذلك طوفان الدماء ...!
— حتى طوفان الدماء ماذا صنع ؟ ... وماذا أجدى ؟ ... ألم تكن الحرب الكبرى الماضية طوفان دماء ...!

— طبعاً ...

— لقد انتهت النازلة وختمت المجزرة ، وشربت الأرض دماءها وابتلعت آثامها ... وظن العالم أن أصنام القوة المادية قد حطمت ... وأوثان الطغيان قد هدمت ، وأن الحق وحده هو المسيطر ، وأن الخير هو المنتصر ... وأن الدول الصغيرة والدول الكبيرة سواء أمام سلطان الحق وحده ... وأن الشعوب القوية والشعوب الضعيفة متساوية أمام سيد واحد هو : النفع العام لبنى الإنسان دون أثر أو نعمة ... ونهض الناس ينظرون فى كل أمة إلى قوس النصر وقبر الجندى المجهول ، كما نظروا إلى قوس قزح ... سائلين الله أن لا يعيد الحرب مرة أخرى ... فما الذى حدث ؟ ... أجبنى ... ما الذى حدث بعد ؟

— حدث الذى حدث فى الطوفان الأول ؛ بلا زيادة ولا نقصان ...

حدث أن تعلق إبليس بذيل ...

— بذيل من ؟ ...

— بذيل الرئيس ولسون ! ... صاحب المبادئ الأربعة عشر المشهورة ، التي كانت ستكفل للعالم سيادة الحق والعدل والخير والسلام .

— إذن لقد خاب ذلك الطوفان هو الآخر ؟ ...

— بالطبع ... وهانحن أولاء في طوفان جديد ... لم تبتلع الأرض بعد دماء ؛ بل لو ذهبت الحماسة لما وجدت ورقة زيتون تلتقطها ، ولا عشاء تأوى إليه ... فقد ضربت القنابل كل بناء ، وهدمت كل جدار ... ولكن الناس يحتملون كل ذلك صابرين ، وينظرون إلى الغد مستبشرين ، ويعلمون أنفسهم بأن هذا آخر طوفان .

— كما قالوا في كل مرة ...

— أظن أنه قد آن للبشرية أن تعقل ، وأن تبلغ رشدها ، وأن تتحرر نهائياً من طغيان الغرائز الدنيا ... وأن تكف عن تمزيق بعضها بعضاً ، وأن ترتفع إلى حيث تعمل متكاتفه لمصلحة الإنسانية كلها جمعاء ، دون ضغائن ولا سخائم ولا بغضاء ... ودون تمسك بغرور كاذب ، وعظمة زائفة ، وحب تسلط ، وشهوة سيطرة ...

— قل بالاختصار : دون عبادة لأصنام الكبرياء الذاتي .

— هو ذاك .

— اسمح لي أن أقول : إن هذا شيء عسير على الإنسان ... لا بد للإنسان من عبادة الأصنام ... لم يستطع طوفان الماء ، ولا طوفان الدماء ، أن يفرق الأصنام التي يصنعها الإنسان لنفسه ! ... إن الإنسان غير قدير ولا جدير بعبادة الله ... لأن الله لا يميز بين جنس وجنس ، ولا

فصيلة وفصيلة ... هو النور العام الذى يضىء كل الكائنات ... وهو الحب العام الذى يربط كل شيء بكل شيء ... ولكن الإنسان لا يفهم ذلك ... إنه لا يرى إلا ما تصنع له يده من صور نفسه الجشعة الأثرة ، المتعجرفة العمياء ... كلا ... إن الله بعيد ... بعيد عن الإنسان ... وأنه أرفع وأعلى وأعمق من أن يتصل به الإنسان ... ربما كنت أنا وفصيلتى أقدر على حبه ... هل سمعت منذ بدء التاريخ أن فصيلة الحمير عادت أصناماً ؟ ...

— إلى معك ... مع الأسف .

— أجبني إذن : ما فائدة الطوفان إذا كان ...

— إذا كان لا يستطيع أن يفرق إبليس ؟ ...

— أرجو — قبل كل شيء — أن لا تصدق أن إبليس دخل السفينة متعلقاً بذيل الحمار ! ...

— بل هذا أصدقه ...

— تصدق هذا ؟ ...

— بالتأكيد ... لأن الحمار يحمل نفساً صافية ، ومبادئ مثالية ، وإبليس خبيث ، يحب العبث والسخرية ، ولا يحلو له أن يعبث ويسخر إلا من أصحاب النفوس الخيرة والمثل العليا ... فلا عجب إذا دخل مكاناً أن يتعلق بتلايب أطيب القوم قلباً ، وأسماهم فكراً ... إنه لا يلزم التافهين ، ولكنه يتمسح بدوى الشأن ... إنه يحب الدخول من الباب الكبير ... لذلك ترائى أنظر إلى هذا الطوفان الأخير بعين القلق ... أبحث عن الرجل المثالى الذى سيدخل فى أذياله إبليس ! ...

— أكتب عليكم هكذا معشر البشر أن تعيشوا فى سفينة ضالة فى بحر

— ٢٢ —

الظلمات بغير المثل الأعلى ... تهيون كالديدان في الحماة ، يأكل بعضكم بعضاً ؛ فإذا وُجد فيكم من يحمل مشعل المثل العليا انقلب سخرية للساخرين ولعبة في أيدي العابثين ١٩٩... —

— تلك هي المشكلة ...

— حتى الطوفان لم يحلها ...

— لم يُجعل الطوفان ليحل شيئاً ... ولكن ليلطف من وقع الأشياء .. إنه حمام يهدئ أعصاب البشرية كلما احتاج الأمر ، لقد فقدت الأمل في وجود العلاج الحاسم ... فلم يعد حتى طوفان الدماء في نظري غير نوع من الحماة أو الفصد ، يلجأ إليه الإنسان كلما ازداد الضغط ...

— أتدرى أين العلاج ؟ ...

— أين ؟ ...

— عندي ...

— عندك ؟ ...

— نعم ... عندي العلاج ... وإذا قلت لك عندي ؛ فإنما أقصد عند فضيلتي ... فنحن نفكر جميعاً تفكيراً واحداً ، فليس عندنا حمار مثالي وآخر ... مادي وليس عندنا زعماء ولا قادة ، ولا أوثان ولا أوطان ، بل يوجد حمير على أرض الله وكفى ... شعورها واحد وقلوبها واحدة ...

— هذا جميل ...

— نعم ... ولذلك أستطيع — إذا سمحت لي — أن أجد العلاج لكم معشر الإنسان ! ...

— حقاً ... هذا هو الذي كان ينقصنا ! ... يا مجد الإنسانية المنهار ! ... أئذلنا القدر هذا الإذلال ؛ فلا نجد من يهديننا إلى علاج أمرنا

— ٢٣ —

غير حمار ١٩... ..

— كبرياؤكم ... كبرياؤكم الزائل ... إنه في دمكم ! ...
دمكم الذى فسد ... لا أمل فيكم ولا علاج لكم إلا بعملية نقل الدم ...
نقل دم جديد ...

— أظنك ستقترح أن ينقل إلينا دم حمير ١٩... ..

— لا ... إنها لتضحية كبرى من فصيلة الحمير ؛ لا أنصح لها أن
تتحملها من أجلكم ...

حمارى وهتلر

جعل حمارى يحدثنى ذات مساء فى الطغيان والطفأة ، ويسترسل فى الحديث وأنا عنه لاه كالنائم ، وما أنا بنائم ... فلقد انتزعنى خيالى وطار بى ، وألقانى فى أساطير الماضى : بين يدى « شهر زاد » وأنا أعرف شهر زاد كل المعرفة ... وقد أبرزتها فى كتاب ... آه ... يا لها من امرأة ... شهر زاد ...! إذا انفرجت شفتاك عن هذا الاسم ، فاعلم أنك لفظت باسم عظيم فهو اسم تلك التى استطاعت أن تجعل من شهر يار سافك الدماء رجلاً مهذباً ، محباً للخير مترفعاً عن العدوان ... لقد دخلت حياة ذلك الملك الطاغية كما تدخل الروح الطيبة جسداً أصم أو الريح المخبضة واحة مقفرة ... واهتدى شهر يار بهديها ، وتمت بذلك معجزتها ، فانزوت فى بطون الأساطير ...

ولكن فى هذا العصر عاد شهر يار جديد إلى الظهور ، لا فى صورة ملك بل فى صورة (فوهرر) يقطن قصرأ ، لا فى بغداد ، بل فى برختشجادن ... وهو لا يكتفى بذبح عذراء فى كل صباح ، كما كان يفعل شهر يار الأول ... بل إن « حمام الدم » الذى لديه أرهب وأروع ...! وشر دى الخيال ، فتصورت شهر زاد تستشيرنى — بصفتى مؤلفها — فى أن تذهب إلى الزعيم العصرى كما ذهبت من قبل إلى ملك الزمان الغابر ،

لعلها تظفر بهديته ، كما ظفرت بهداية سلفه ، ولعلها تنتشله من الطغيان ، وترجحه لخير بنى الإنسان ... فحمدتُ لها عواطفها الرقيقة ومشاعرها النبيلة ، ولكنى ترددت إشفاقاً عليها وقلت :

— أيتها العزيزة شهر زاد !... جُعلتُ فداك ... لقد خطر ببالي كل ما خطر لك ، ولقد رأيت من واجب الكاتب أن يجهر بما يعتقد ، فرسمت « لصاحبنا » من الصور ما سوف يعرض عنقى لمديته ، وسوف أدعى إلى حمام الدم ، وأنا لا أعرف السباحة ؛ فيكون هذا حمامى الأول والأخير ... أما أنت يا ذات الجمال ... يا من اعتدت السباحة بجسمك العاجي في ذلك الحوض من الممر القائم في قصرك العجيب !... .

فقاطعتنى شهر زاد قائلة :

— أتخشى على وأنا الخالدة ؟! ... خف على جلدك أنت أيها المخلوق المالك !... أكبر ظنى أن إشفاقك هذا ليس على شخصى بالذات ، إنما هو على كتابك عنى ؛ الحامل اسمى الذى سوف يحرق ويباد إذا فشلت في مهمتى ووقع بينى وهتلر العداء ... يالهؤلاء الأدباء والكتاب إنهم يخافون على جلد كتبهم أكثر مما يخافون على جلد أجسامهم .

وتركتنى بلا تحية ولا وداع ، واختفت عن بصرى ، وارتفعت في الفضاء ومضت إلى قصر « برختشجادن » .

كان « هتلر » في ذلك المساء منفرداً في قاعة كبيرة من قاعات القصر ، يطيل التأمل أمام خريطة حربية ، وقد شرد ذهنه واتجهت عيناه إلى نافذة بلورية تشرف على الوديان الخضراء المحيطة بذلك الجبل الذى يقوم عليه قصره المنيع ، وإذا هو فجأة يسمع خلفه حفيف الثوب ، وهفيف غلالة

— ٢٦ —

حريرية ، ويشم عطراً شرقياً ملأ جو المكان ، فاستدار ، فألقى نفسه
وجهاً لوجه أمام امرأة لم يقع بصره قط على أجمل منها ... فعقد لسانه ،
وجهد في مكانه ، ومرت لحظة أو لحظات ... ثم أفاق قليلاً ، وقال لها
كالهامس :

— من أنت ... ؟

فقال الجميلة :

— أنا شهر زاد ... جئت إليك من الشرق ...

وكأنما غمر هتلر في حلم ، فإذا هو لساعته يحس الأشياء من حوله
تخف وترتفع قليلاً في الهواء ، وحلت عقدة لسانه ، وتحرك من مكانه ،
وخف لاستقبال شهر زاد ، وكأنه يعرفها معرفة الأصدقاء منذ أعوام ...
وأجلسها في صدر القاعة .. وأراد أن يقدم إليها من الطعام والشراب ما
يقدم إلى الأضياف الكرام ... فأبت وشكرت ، وأشارت إليه بالجلوس
والإصغاء ، قائلة :

— فلا تخبرك أولاً سريعاً ، لماذا جئت إليك ، إن مقابلتنا الساعة قد
يتوقف عليها مصير العالم .

فقطب هتلر جبينه ، وزالت عنه غمرة الحلم وقال :

— جئت في مهمة سياسية ؟ ... فهمت ، ما أجملك رسولا من الدول
الديموقراطية ...! إنها لشجاعة منك أن تقودى طائرة بمفردك ...! أين
هبطت يا سيدتى الطائرة التى جئت بها ؟ ...

— أية طائرة ؟ ...

— عجباً ...! كيف جئت إذن ؟ ...

— قلت لك أنا شهر زاد ... شهر زاد الأساطير ... شهر زاد التى

طالعت خبرها ، ولا ريب ، وأنت صغير ... وأنا بالطبع لا صلة لي بالديموقراطية أو الفاشستية ؛ لأنى — كما تعلم — أنتمى إلى زمان لا يعرف هاتين الكلمتين ... إنما أجيء إليك اليوم بصفتى الشخصية ، كما جئت من قديم إلى الملك شهر يار ، فلبثت عنده ألف ليلة وليلة ، أقص عليه من ألوان القصص ما غير نظره إلى الحياة ...

فقاطعها هتلر قائلا ، وهو ينظر إلى خريطته الحربية :

— ليس لدى وقت للإصغاء إلى القصص ...

— هذا من سوء الحظ ...

قالتا شهر زاد بنظرة لم تصمد لها عيناه ، فأطرق قائلا :

— ربما كان هذا من سوء حظى حقاً ، فأنت امرأة جذيرة أن يجلس إليك رجل أكثر من ألف ليلة وليلة ، ولكنى مشغول كما ترين ، ولا أحسبني أملك الإصغاء إليك أكثر من ليلة ... إن العصور قد تغيرت ... وإن مصائر الشعوب تتقرر أحياناً فى جلسة واحدة بقاعة مؤتمر أو مقصورة قطار ... اطرقى يا سيدتى الموضوع من بابهِ ... وأوجزى ! ...

لم تياس شهر زاد من هذه اللهجة الجافة ... وقالت مترفقة :

— اطمئن ! ... إلى لا أجلس إلى أحد رغماً عن إرادته ، وإلى لقدرة قيمة وقتك الثمين الذى تنفقه فى ... فى هدف لا أقرك عليه ، وقد أكون مخطئة ؛ وقد تكون أنت المخطئ ... ثق أنى غير مقيدة برأى ... غير متعصبة لمبدأ ... إلى حرة حتى الآن مثل هذا الهواء ، وقد جئت لك لأقنعك بما أرى ، أو لتقنعنى بما ترى ... فليكن بيننا الساعة صراع هادئ بين روح المبادئ .. هل قبلت ؟

— قبلت ...

قالها هتلر مبتسماً ، وقد طمع في إقناع شهر زاد ، وأمل في أن يرجعها هو إلى جانبه ، ومن يدري ؟... لعله يستطيع أيضاً بعد ذلك أن يلحقها بوزارة دعايته تحت إدارة الهر جوبلز ... ليس بينه إذن وبين تحقيق هذا الأمل سوى أن يقنع شهر زاد بأرائه ... هنا رفع رأسه مستبشراً ... وممر يده على خصلة شعره المتهدلة على جبينه كأنها جناح غراب وقال :

— سوف أقنعك بمبادئ ...

— بغير عنف ؟ ...

— بغير عنف ...

— إنه ربح لا يستهان به ، أن تسمح بحرية الرأي والكلام والمناقشة ، ولو إلى أجل قصير ..!

قالها شهر زاد بابتسامة ذات مغزى ، فأدرك هتلر لساعته أنه يكاد يقع في فخ هذه الشرقية الجميلة ... فليس هو الذى قد يكسبها ويجذبها إلى النازية ... ولكن الخوف أن تجذبه هي — بغير أن يشعر — إلى روح الديمقراطية ... فتجهم وجهه ، وعادت إليه من الفور طبيعة الجبروت ، فضرب المائدة بقبضته وصاح :

— كلا ... لست أسمع هنا على الإطلاق بحرية الرأي أو روح الديمقراطية ، وأرجو منك أن تكفى عن ذكر هذه الألفاظ إذا أردت أن نتفاهم ...!

فابتسمت شهر زاد وقالت متلطفة :

— وكيف نتفاهم بغير حرية التفاهم ؟... ماذا تخشى منى وأنا أحادثك على انفراد والأبواب مغلقة ، ولا يسمع حديثنا أحد من شعبك ... إذا لم تطلق لي الحرية الساعة في محادثتك ، فمعنى هذا أنك تخشى أن

أقنك ؟...

— كلاً لست أخشى شيئاً ... تحدثنى بكل ما تريدن ...
 قالها وهو يتلفت يمنة ويسرة ليتأكد من أن الحيطان ليس لها آذان ،
 واعتدلت شهر زاد فى جلستها وقالت :

— إني لا أحب العنف فى الإقناع ، لا لأنى ديمقراطية النزعة فأنا كما
 قلت لك لست أنضوى تحت حزب من الأحزاب ، ولكن تلك طبيعتى
 منذ القدم ، وإنك ولا شك تعرف قصبتى مع شهر يار ، هل تذكر أنى
 لجأت إلى العنف فى إقناعه ؟...

— أشهد أنك كنت بارعة ، ولكن ذلك لا يمنع من القول أنك كنت
 امرأة خطيرة ، لقد كنت أنت — ولا تؤاخذينى — الخليفة دون غيرك
 بحمام الدم ، فإن المرأة التى تستطيع أن تحول ملكها عن سياسته ، وأن تغير
 نظام حكمه فى دولته ولو إلى الأصلاح ؛ هى على كل حال امرأة نائرة على
 النظم ...

— إني لم أكن نائرة ، ولم أندخل يوماً فى سياسة شهر يار ، ولم أنصح
 يوماً بإبرام أمر أو الإقلاع عن فعل ... إنما دخلت حياته كبصيص النور
 الضئيل المتسلل من خصاص الأبواب ، فإذا هو يرى ما لم يكن يرى ، وإذا
 هو يصلح نفسه بنفسه ، ويتحول من حال إلى حال ، ومن سياسة إلى
 سياسة من تلقاء ذاته ...

ففكر هتلى لحظة ثم قال :

— ألم تكن هناك مؤامرة من الشعب ؟ ... إن شهر يار كان يدخل كل
 ليلة بعذراء يقتلها فى الصباح ، حتى كادت تنقرض من بلاده العذارى ،
 فلا بد أن الشعب ضج ، وغضب وتهامس ، وتآمر ... اعترفى ... ألم

تكونى موفدة من قبل الجماهير ؟...

— كلا ...

— من يدري ... لو كان لشهر يار « جستابو » فى ذلك الحين لتدارك

الخطر قبل وقوعه ...

— الحمد لله إذ لم يكن لديه ذلك ... لو أن هذا حدث لما كان ...

— لما كان اسم شهر زاد ظهر فى سماء التاريخ ... ولما عرفت الأجيال

غير اسم شهر يار وحده ...

— دعنا من التاريخ ... إنما الذى يجب أن تحفل به هو الانقلاب الطيب

الذى حدث لذلك الملك ... إنه ولا شك قد رضى عن نفسه كل الرضا

يوم رأى الأشياء كما ينبغى أن تُرى ...

سكنت شهر زاد ... وحدثت الفوهرر بنظرة طويلة ... فخفض

بصره قليلا وأطرق ... ثم قال :

— إن لك يا شهر زاد أسلوبا عجيبيًا فى الكلام ... إنك تريد أن تلقى

فى روعى أن هنالك أشياء عظيمة تريتها أنت ولا أراها أنا ... وتحاولين أن

تدخلين فى نفسى الشك فى مبادئى ... ولكن فأتك أنى أضع العقل دائماً فى

الحل الثانى ، والفكر فى المقام الثالث ... أما المكان الأول عندى فهو

للإيمان ... إنى أو من وأنا مغمض العينين ، موحد الأذنين ، مغلق

العقل ... أو من بمبادئى وحدها أو من وأو من ؛ ثم أو من ... تكلمى بعد

ذلك بما شئت ...

فابتسمت شهر زاد ثم قالت فى دهاء :

— من قال لك إنى أريد أن أهنئ إيمانك بمبادئك ... إنى جئت لأقنعك أو

لتقنعينى ... وقد أفشل أنا معك ، وقد تفشل أنت معى ... إنى تواقه إلى

الحرية ... حرية البشر أجمعين ، ولقد ذهبت إلى شهر يار عندما رأيت
حرية الشعب وبنات الشعب في خطر : مبدئى هو الحرية لكل إنسان ، ولا
استعباد لأى إنسان ... فمن كان يعمل لهذا المبدأ فأنا معه ، سواء كان
أنت أو خصومك ... هذا قولى ... فاغمض عينيك عنه ، صم أذنيك إذا
شئت ، وأغلق فكرك ... ولكنى أنا فاتحة عيني وأذنى لأتلقى عنك ما
تقول ، وأزن ما تدلى به ، وأقبل الطيب من حديثك إذا وجد ... ولا
أكره أن أقتنع بمبادئك إذا كانت نافعة للناس ، فإن المكان الأول عندى
دائمًا هو للفكر الحر ، والاعتناع المطلق ، ثم الإيمان بعد ذلك .. تكلم فأنا
مصغية إليك ...

واتكأت شهر زاد بساعدها على طرف المقعد ، وغرقت فيه ، ورنّت
إلى هتلى بعينها الصافيتين العميقتين ، فاختلج قلبه قليلا ... ولكنه
تماسك وقال :

— اعلمى أولا أنى ذو قلب ... حذار أن تقارنى بينى وبين شهر
يارك ... إنه كان يسفك دماء العذارى ؛ لأنه لم يكن يعرف الحب ... أما
أنا فقد أذنت بحمام الدم لأنى أحب ...

فقال شهر زاد فى سخرية غير ملحوظة :

— امرأة ... ؟

فأجابها هتلى فى لهجة مثل لهجتها :

— إنى لست همجياً حتى أقدم مثل هذا القربان لامرأة ... !

— إنك حقاً رقيق الشعور ... !

— ما من امرأة عندى جديرة بأن أهرق من أجلها قطرة من الدم ...

لقد قلت لك إنى ذو قلب ... ! وأى قلب ؟! إنه أرحب من أن يحوى

امرأة ... إنه يحوى ألمانيا ...

وصمت ... فابتسمت شهر زاد ، وقالت فى هدوء :

— كنت أحسبه أرحب من ذلك .. وأنه يحوى شيئاً أعظم من ألمانيا .

— ماذا ؟ ...

— الإنسانية ...

لفظتها شهر زاد فى همسة عميقة ... فوجم هتلر لحظة ، ثم قال :

— ماذا تعنين ؟ ...

— أعنى أنك لو أحببت الجنس البشرى كله ؛ لا الجنس الآرى

وحده ... لكنت أعظم ألف مرة مما أنت الآن ، وبما تريد أن تكون . أصغ

إلى ملياً ... لماذا لم تفكر فى هذا المجد ؟ ... يدهشنى حقاً أن مثلك لم تخطر

له هذه الفكرة ! ... إن حياتك معجزة لا ريب فيها ، فلماذا لم تستخدم

هذه المعجزة لغاية أعظم وغرض أسمى ؟ ... لماذا لم توجه قوتك وثورتك

للاارتفاع بالإنسانية كلها ... فيسطر التاريخ لك صفحة لا يسطر مثلها

لغير الرسل والأنبياء ؟ ...

إن الصفحة التى يعدها التاريخ لأعمالك اليوم ؛ ليست بذى شأن

عظيم ، وقد كتب مثلها الكثيرون من قادة الجيوش الذين فتحوا العالم

معتمدين على القوة العسكرية ... ففرحوا بأكاليل النصر الحرى الذى زان

جباههم ، ولم يفظنوا إلى أنها أكاليل من الزهر الذى يذبل بعد حين ...

ولقد ذبلت فعلاً ، وهوت ، وذرتها الرياح ؛ كل تلك الفتوح التى تفاخر

بها أولئك القوادى العسكريون ... ذلك أن لا شئ يثبت فى الأرض وينبت

الثار الصالحة الخالدة غير البذرة الطيبة التى يلقها فى نفوس البشر رجل

يجب الإنسانية كافة .. هذا هو المجد الذى ليس بعده مجد لإنسان ! .

— ٣٣ —

— إنك امرأة ... ولا يدهشنى قط من امرأة أن تبخس قدر النصر
الحرى !... —

— النصر الحقيقى هو لذلك الذى يستطيع أن يسير بالبشرية ، ولو
خطوة ... ويسعدها ، ولو لحظة ... إن كلمة نبى ، أو ترنيمة شاعر ، أو
تغريدة موسيقى ، لأبقى على الدهر من صيحات الظفر وطبول النصر فى
أكبر معركة حربية !
— عجباً !... —

— فيم العجب ؟... إن ذلك الذى يستند إلى قوة الله — وهو النبى
والرسول — وذلك الذى يستند إلى قوة الفكر — وهو العالم والفنان —
لأبقى وأخلد من ذلك الذى يستند إلى قوة الجيش ...!!
شرد هتلر بخياله لحظة ... وقال كالمخاطب نفسه :
— وأأسفاه ...! لطالما تفتت إلى أن أكون نبياً ...!
— من أجل ذلك هاجمت الله والكنيسة ...!؟
— ولطالما تفتت إلى العلم والفن ...!
— ولهذا نفيت العلماء والفنانين ...!؟

— عبقرية بلادى هى عبقرية عسكرية قبل كل شيء ... لم أفطن إلى
ذلك يوم قامت فى نفسى تلك القوى الجائحة تدفعنى أن أعمل شيئاً
للتاريخ ... لا تنكرى يا شهر زاد أن المعجزة تتخذ لون الأرض التى تظهر
عليها ، وأن العظيم يتغذى ككل نبات بعناصر التربة التى ينبت فيها ...! لا
تحسبى عبقرية ألمانيا أو أوروبا تصلح لإبراز نبى من أنبياء الشرق ...!
— هذا صحيح ... ولكن العظيم يجب أن يثور على أوضاع بيئته وأتمه
وعصره ، لينشر تعاليمه التى تنفع الإنسانية كافة ... هكذا فعل المسيح
(حمارى قال لى)

ومحمد ؛ لقد كان كل منهما يجاهد وحده ضد وطنه وزمانه ليبيذر فيهما المثل الأعلى للإنسانى ... وقد اضطهدا وعذبا فى سبيل ذلك ، وقد انتصرا آخر الأمر ذلك الانتصار الخالد على الزمان وما بعد الزمان ... ثقب أنى لا أخدعك ... إن الخلود هو لمن يعمل الخير الإنسانية كلها ، ولرفعة الجنس البشرى كله ... لهذا كانت غلظتك الكبرى ، أنك أحببت جنساً واحداً ، وكرهت بقية الأجناس ... وعملت لرفعة شعب واحد ليستعبد بقية الشعوب ! ...

وأدرك شهر زاد الصباح ، فسكتت عن الكلام « المباح » .
 — المباح مؤقتاً بإذن خاص من هتلر — وسكت « الفوهرر » ولا يدرى أحد أكان سكوته لاقتناعه بحديث شهر زاد ، أم للتفكير فى طريقة للتخلص من هذه المرأة الخطرة ؟؟ ...

حمارى وموسولينى

قال لى حمارى ، وهو يحدق معى فى أعمدة الصحف يوم روت خبر
سجن « موسولينى » فى قلعة جزيرة « بونزا » قبل أن يهرب منها :
— ترى كيف تتصوره وهو فى سجنه ؟ ...

فشرد ذهنى لحظة ، ثم قلت كالمخاطب لنفسى ، وكأنى أبصر شريطاً
متحركاً :

أتصوره جالساً « منتفخاً » وقد دخل عليه ضابط من جنود
الكارابينيرى القائمين بحراسته ... فدار بينهما الحديث التالى :

الحارس : هل طلبتنى يا سيدى ؟ ...

موسولينى : أردت أن ألفت نظرك إلى أن الطعام هنا ردىء ...

الحارس : لقد نسوا يا سيدى من غير شك أن يرسلوا إلى هذه الجزيرة

طهاتك البارعين فى قصر روما الفاخر ! ...

موسولينى : لقد نهتك قبل الآن أن تكف عن مخاطبتى بكلمة
« سيدى » ... إنى أصر على مناداتى بلقب

« الدوتشى » ! ...

الحارس : ليس لدينا أوامر بذلك يا سيدى .

موسولينى : لديكم فقط أوامر بقتلى إذا حاولت الهرب ؟ ...

الحارس : هو ذاك يا سيدى ...
 موسولينى : لو كنت قرأت تاريخ « نابليون » لعلمت أنه كان يصبر هو
 الآخر على أن يخاطب وهو سجين فى جزيرته بلقب
 « الإمبراطور » ...

الحارس : وهل أجابه حارسه إلى ما طلب ؟ ...
 موسولينى : كل حارس ذى مروءة وذوق لا يرفض ذلك .
 الحارس : أنا أيضاً لا أرفض أن أكون حارساً ذا مروءة وذوق ...
 فلأمنحك إذن هذا اللقب ... فى هذه الحجرة المغلقة من
 قلعة نائية فى جزيرة مقفرة ... أتنازل وتتقبل منى هذا
 اللقب يا سيدى « الدوتشى » .

موسولينى : ولماذا هذه الابتسامة على فمك ؟ ...
 الحارس : تلك ابتسامة لا أظن من المروءة والذوق أن أطلعك على
 معناها ! ...

موسولينى : آه ... حقاً ... حقاً ... هل لى أن ألقى عليك سؤالاً ؟ ...
 الحارس : إبنى فى خدمتك ...
 موسولينى : صارحنى بالحقيقة ... هل أنت وحدك الذى يسخر منى
 الآن ؟ ...

الحارس : أظن أنى لست وحدى ...
 موسولينى : من غيرك ؟ ...
 الحارس : كثيرون ...
 موسولينى : أكثر من عشرة أشخاص ؟ ...
 الحارس : أكثر من عشرة ملايين ...

— ٣٧ —

- موسولينى : عجباً ا... من أى دولة ؟...
- الحارس : من شعبك نفسه ...
- موسولينى : ألا تراك مبالغاً فى التقدير قليلاً ؟!
- الحارس : من غير شك .. إلى مبالغ فى إنقاص العدد ؛ فإن أولئك الذين سمعوا خطبتك من الإيطاليين وحدهم يبلغ عددهم أكثر من ثلاثين مليوناً ...
- موسولينى : أى خطبة ؟...
- الحارس : خطبتك الرائعة فى ذلك الموقف الرائع ، وأنت على ظهر مدفع ضخيم تصبح قائلاً :
- « ثمانية ملايين حرية تنتظر إشارتى بالهجوم ... البحر الأبيض بحرنا ... مارنسترام ... « مارنسترام » .
- موسولينى : وأسفاه ا...!
- الحارس : أليس لهذه الملايين الآن بعض الحق فى ابتسامة صغيرة ؟!
- موسولينى : « مارنسترام » ا...!
- الحارس : نعم ... ها هو ذا « مارنسترام » ... بحرنا ... بحرك ... مد إليه يديك من خلال قضبان سجنك الصغير ...
- موسولينى : لقد أردت حقاً أن أمنحكم هذا البحر بهاتين اليدين ؛ فوضعتم فيهما الأغلال ا...!
- الحارس : من سوء حظنا أننا فعلنا ذلك متأخرين ا...! لقد تبين لنا — بعد فوات الأوان — أنك أعطيتنا حقيقة بحراً ... ولكنه بحر من الدماء ا...!
- موسولينى : هذا قولكم أنتم يا أعدائى ... ولكن الشعب الإيطالى كله

يهتف الآن ...

الحارس : يهتف الآن بسقوطك في كل مكان ...

موسولينى : أنت كاذب ...

الحارس : لقد سألتنى الصراحة ... ولكنك لم تنزل تبغضها

وتخشاها ... إن أذنك التى تعودت الإصغاء إلى رياء

الخائفين ، وزلقى الطامعين ، وتمويه الخدوعين ما زال

يذعرها رنين الصدق والحقيقة ...

موسولينى : أهذا معقول أن يهتف الشعب الإيطالى بسقوطى ؟!

الحارس : المعقول هو أن يفعل ذلك الآن ...

موسولينى : كيف يستطيع ذلك ؟ ...

الحارس : الأمر بسيط : ما دامت يدك القابضة قد أقصيت عن غطاء

الإلقاء ... فإن البخار المكتوم يستطيع الإنطلاق حراً فى

الفضاء ! ...

موسولينى : أو ينسى الشعب ما صنعت له ؟ ...

الحارس : إذا أعطيت شعبك كل شيء ، وسلبته حرية ، فإنك لم

تعطه شيئاً ...

موسولينى : أينسى صوتى الذى هز مشاعره ؟ ...

الحارس : كلا. هذا لا ينساه إن صوتك حقاً كان مؤثراً ... وخطبك

كانت رائعة ... وحركاتك ووقفاتك كانت بارعة ...

وهل ينسى الشعب صوت « كاروزو » أو تمثيل

« زاكونى » ؟!

موسولينى : إلى لم أكن ممثلاً يا هذا ...

الحارس

: إنك كنت ممثلاً أتقن دوره حتى نسي نفسه وأنسى الجماهير
 أنفسها!... إنك أعظم ممثل أنجبته عبقرية إيطاليا الفنية ...
 مأساة حياتك وحياة إيطاليا الحاضرة : هي أنك لم تتخير
 الظهور من بادئ الأمر على مسرح التمثيل ، وآثرت اللعب
 على مسرح السياسة ... لقد اتبعت بغريزتك وطبيعتك
 عين الطرائق الفنية المسرحية ، فبدأت بدراسة
 « شخصية » من الشخصيات . كانت هي ، لسوء الحظ
 أو لسوء الاختيار ، شخصية « نابليون » ... لست أدري
 لماذا تجذب هذه الشخصية دائماً هواة التمثيل في كل
 ملعب! ... درستها أنت فيمن درسها ... وتشبعت بها
 حتى جاوزت التمثيل إلى التأليف ... فوضعت قصتك
 التمثيلية عن : « نابليون والمائة يوم » ... وإني لأتساءل عما
 منعك من تقمص « نابليون » بنفسك في روايتك على
 المسرح الخشبي ؟! ... لعل المانع هو اشتغالك فعلاً بتمثيلها
 على المسرح الآخر ... كل هذا كان يقبل منك لو أنك
 مسحت الأصباغ عن وجهك آخر النهار ، وخلعت
 الأنواب وأطفأت الأنوار ، وصارحت جمهورك بقولك
 له : « إن هذا كان تمثيلاً! ... » لأن شخصيات التاريخ لا
 تتكرر ، وأن أطماع الطغاة تروى كالأساطير ، وأن الزمن
 قد تغير ، وأن الشعوب اليوم لا ينبغي لها أن تجرى وراء
 أوهام السيطرة الكاذبة والتسلط الزائف ... بل تسعى إلى
 حريتها ورفاهيتها في جو من الوثام والتعاون مع جيرانها من

بقية الأمم والأجناس ... لو أنك نبذت من أول الأمر فكرة التقليد والتمثيل ، وشيدت عملك على أساس جديد من روح العصر وفلسفة الإنسانية النافعة للبشر ... لكنت ارتفعت في نظر التاريخ عن مجرد ممثل للأدوار القديمة إلى مصلح إنساني للعالم الحديث .

موسولينى : يدهشنى أن تتكلم هكذا أيها الضابط ؟ أرى أن اختيارهم لك حارساً لم يأت عفواً .

الحارس : أرجو على كل حال أن يكون في حديثى بعض الفائدة .

موسولينى : أى فائدة ؟ ... ما دامت ها هنا نهايتى ا

الحارس : هب أنك عدت إلى الحياة ... إلى حياة العمل من جديد ... ماذا تصنع ؟ ...

موسولينى : أصنع كل ما تريد ... ولكن كيف الخروج من هنا ؟ ...

الحارس : حقاً ... الخروج من هنا هو المستحيل بعينه ... فهذه الجزيرة الصغيرة محروسة كما ترى بالسفن الحربية من كل الجهات ...

موسولينى : إني مع ذلك لم أفقد الأمل بعد ... إن « نابليون » سجن هو الآخر أول مرة في جزيرة « إلبا » وهى محروسة ، واستطاع مع ذلك الهرب ... لا بد من هربى أنا أيضاً هذه المرة كما هرب ...

الحارس : يا للأسف ... إنك أيها الممثل لا تستطيع الخروج قيد شعرة عن نطاق « الدور » الذى تقلده وتحاكيه ...

موسولينى : ولكن لم أنس ما قلت لى ... وسأعمل ما تريد ...

الحارس : لن تستطيع ... ليس في مقدورك أنت أن تخلق شخصية مستقلة عن شخصيات التاريخ ... لا بد لمثلك من نموذج يسير عليه ... وثوب بطولة زائف يرتديه ... أنت ممثل وكفى! ...

موسوليني : سوف ترى ما أصنع إذا كتبت لي العودة إلى العمل ...
الحارس : ماذا أنت صانع ؟ ... لا شيء غير الاستمرار في لعب دورك حتى نزول الستار ...

موسوليني : أين ؟ ...
الحارس : صدقت في هذا ... أين ؟ .. لا بد لك من مسرح ...
فايطاليا اليوم لا تصلح للعبك المعروف ... إن الجماهير سوف تستقبلك بالصفير المزرى أو الإهمال المخجل ...
ولكن لك شريكا ما زال يلعب على مسرحه ... من يدري ... ربما رضى أن يعطيك دوراً صغيراً إلى جانبه .
(أصوات صياح في الخارج وطلقات نارية)

موسوليني : ما هذا ؟ ... ما هذا ؟ ..
الحارس : مكانك ولا تتحرك ! ...
جندى : (يدخل مسرعاً « هبط النازى بالمظلات .. »
(ضابط نازى يقتحم الحجرة بمسدسه)

الحارس : لا داعى لإطلاق النار ...
النازى : « لموسوليني « أيها الدوتشى ! ...
موسوليني : « ييكى وينتخب من الفرع » إلى ... إلى كنت شاعراً بذلك ...

— ٤٢ —

النازي : لقد أمرني الفوهرر أن أضعك تحت حمايتي !...
موسوليني : إني ... إني كنت واثقاً أن الفوهرر لن ينساني ...
الجندي : (همساً) إنه يهرب ولم نرمه بالرصاص ؟...
الحارس : (للجندي وهو يتأمل منظر موسوليني) أو يريدون منا أن
نقتل هذا المخلوق المسكين !...
الجندي : والأوامر التي لدينا ؟...
الحارس : سيدركون فيما بعد أن هذا الرجل لا ينبغي أن يموت موتة
جندي ؛ بل ميتة مهرج منسى فقد الاهتاف والتصفيق
والدوى ...

حمارى ومؤتمر الصلح

قال لى حمارى مرة :

— صف لى مؤتمر الصلح لهذه الحرب ...

فقلت له ، وقد راقنى سؤاله ، ووددت لو استطعت الجواب :

— كيف أصفه ؟... إنه لم ينعقد بعد بالطبع هذا المؤتمر ، ولا يدرى آدمى متى ينعقد ... إذا شئت ، فلنلجأ إلى عين الخيال ، نرى بها ما يجرى فيه وما يفضى إليه ...

وعين الخيال هذه كعين الماء فى الصحراء ؛ تستمد مادتها من أغوار الرمال ... رمال الزمن والماضى ... لذلك أتصور أن يعقد مؤتمر الصلح القادم فى « فرساي » مرة أخرى ، وفى قاعة « المرايا » الشهيرة بالذات ... ولكن المبادئ التى ستطرح كأساس للسلام سوف تكون جديدة الوجه ... والرجال المجتمعون حول مائدة المفاوضات سوف ينتخبون طبقاً لفكرة خاصة ... وفى الحق : إنه عقب انتهاء الحرب سيشتد رأى العام فى كافة الشعوب المحاربة حول هذا السؤال :

من الذى يصنع السلام ؟... أهم أولئك الرجال أنفسهم الذين جاءوا بالنصر ؟... ألا يخشى أن يكون العمل المنهك والجهد المضنى الذى قام به هؤلاء الأبطال يجعلهم فى حاجة أن ينالوا قسطهم من الراحة ، فيتولى عبء الجهاد الجديد رجال جدد ، ممن كانوا أثناء الحرب يدرسون مشاكل

الغد ، ويعدون العدة في صمت لبناء صرح السلام العالمى ؟ .. ثم ألا يُخشى من الرجال المنتصرين إذا تسلموا قيادة الصلح أن تنسبهم حرارة الظفر أنفسهم ، فيحسبون أن واجبهم على مائدة السلم أن يحرزوا لأوطانهم انتصارات أخرى ، وبهذا يضيع معنى الفكرة العظمى ، التى من أجلها بذلت الأرواح وسفكت الدماء ، وهى :

« التعاون الدولى على أساس المساواة والإخاء بين الأمم جمعاء ١٩ »
كل هذه الاعتبارات قد تجعل من المحتمل أن توفد الديمقراطيات المنتصرة إلى المؤتمر رجالا مشبعين بهذه الفكرة العليا ... فمثلا قد توفد حكومة تشرشل رجلا مثل « بيفرج » وحكومة روزفلت رجلا مثل « ديوى » وحكومة ستالين رجلا مثل « لتفينوف » وحكومة برلين رجلا مثل « أوتو شتراسر » الخ ... وهكذا تفعل كل حكومات الدول المجتمعة حول مائدة الصلح . ولما كانت مصر مدعوة بطبيعة الحال إلى تبوء مركزها من هذه المائدة ، فقد حق لك يا حمارى أن تسأل عمن سوف تندبه حكومة القاهرة لهذه المهمة الخطيرة .

اسمح لخيالى أن يخلع عنه الآن رداء الرزانة ويقفز قفزة جريئة ، فيتصور أن مندوب مصر هو : العبد الفقير « كاتب هذه السطور » ... ولا تسأل عن السبب ؛ بل تعال معى نشاهد ما الذى سيحدث :

لا شك أن خير تعيينى سيقابل — كعادتنا فى مصر — بالهجوم العنيف من الحساد . فيمعنون فى تجريدى ؛ لا من الصفات المطلوبة فى عضو المؤتمر وحدها ؛ بل من كافة الصفات الآدمية التى يتمتع بها كل من خلقه الله من ماء و تراب . .

فيرد على ذلك الأنصار بما يعرفونه عنى من الصفات الحسنة ؛ مبالغين

فيها ... ويأتى يوم السفر فتحشد الجموع فى مطار الماطة ، حيث تقرر أن
أذهب طائراً إلى « فرساي » ... ويعلو هتاف الجماهير مذكراً لإيادى
بمطالب البلاد ... فألوح إليهم بالمحفظة التى تحوى الوثائق الرسمية
والمذكرات التفسيرية التى عليها تقوم المفاوضات ، ثم تتحرك إلى الطائرة
مرتفعة فى الجو ، وقد تبعثها بعض الطائرات الخاصة مزينة بالأعلام
الخضراء ، تودعنى حتى شاطئ البحر ، ثم حطت الطائرات فى الدخيلة ،
وعبرت طائرتى وحدها إلى أوروبا ، وأنا داخلها أفكر فى سر اختيارى
للمؤتمر وماذا أنا قائل فيه ؟ ... وأنا لم أدرس بعد أية وثيقة من الوثائق التى
بالمحفظة ، فقد ضاع وقتى فى مصر بين مطالعة شتائم الحساد فى النهار ،
وأقوال الأنصار فى المساء .

لكن لماذا لا أنتهز فرصة هذه الخلوة فى الطائرة وأطلع هذه الأوراق
الهامة ؟ ... ومددت يدي نحوها ولكن ذهنى شرد ... وتلك ولا شك
صفة فات حسادى أن يذكرها ضمن ما ذكره عنى من صفات ...
شرد ذهنى فى أمر وصولى إلى فرنسا — وأين يكون مقامى ؟ ... أفى فندق
فى فرساي مع بقية أعضاء مؤتمر الصلح ... ولماذا لا أنزل كما يحلو لى فى
« مونمارتر » مثلاً ... بذلك الفندق الذى نزلته منذ نحو عشرين عاماً ولى
فيه ذكريات ؟ ... وجعلت أستعرض فى رأسى ذكرياتى يوم كنت أقطن
أمام مرقص « الكوليزيوم » المشهور ، وأمضى ليلى أكتب شعراً فرنسياً
منثوراً فى الحانة المجاورة للمهى « الطاحونة الحمراء » وأنا أحتسى بيرة
ستراسبورج ، وآكل « الكرنب بالسجق » ... وأرملق بنات الهوى
الجانحات الجالسات على الموائد حولى ينتظرن الدعوات وأنا أقول لهن :
« يا عرائس الشعر ابعدن عنى ساعة الأكل ، فما فى جيبى غير فرنكات

معدودات ثمن طبقى وحق جمالكن ...! »
 فى اليوم التالى لوصول طائرتى إلى فرنسا ، افتتحت أول جلسة من
 جلسات مؤتمر السلام فى قصر فرساي . بمدينته الخضراء ذات النافورات
 العجيبة ، ينبثق منها الماء فى أشكال وألوان ، كأنه ماسة ملقاة فوق العشب
 تشع بالأضواء — واجتمع الأعضاء من مختلف الدول حول مائدة كبرى
 مستديرة فى قاعة « المرايا » ... وقد وضع كل عضو محفظة وثائقه أمامه
 وجعل يخرج منها الأوراق ... واتخذت مكانى بالطبع بين الجالسين ...
 وأردت أن أصنع مثل ما صنعوا ... وإذا أنا لدهشتى ومصيتى وطامتى
 أتذكر أنى نسيت محفظة وثائقى بالطائرة ... والنسيان — قاتله الله — صفة
 أخرى من صفاتى الممتازة ... ما العمل الآن وقد ضيعت — أول ما
 ضيعت — المحفظة التى فيها مطالب بلادى ؟! ...

لم تدم ورطتى طويلا ؛ فقد عزيت نفسى بقولى : إن المؤتمر فى يومه
 الأول لن يبحث على أى حال فى المسألة المصرية ... ومن هنا إلى أن يجيء
 دورها يكون الله تعالى قد فتح علتى بالحل الموفق السعيد .
 وغرقت فى مقعدى الوثير مطمئناً ، أستمع إلى المناقشات التمهيدية
 الأولى بين « بيفردج » و « ديوى » و « لتفينوف » و « شانج كاي
 شيك » وكلما أوغلوا فى المناقشة فترت قوتى على الإصغاء وتهاى ذهنى
 كالعادة إلى الانصراف والإنطلاق فى أجواء أخرى ... وبالفعل ... لم
 يمض غير قليل حتى ألفت نفسى منهمكا فى حصر عدد المرايا فى القاعة ،
 وملاحظة حركات ممثل الصين وهى تنعكس على كل مرآة ... ثم طفقت
 أقول فى نفسى :

ليس أنسب من هذه القاعة لاجتماع نسوى ... فكثرة المرايا تسر المرأة

وتملؤها زهواً وخيلاء ... لكن لماذا تجتمع الدول هنا أيضاً في قاعة المريا ؟ ... أخشى أن يكون هذا سبباً من أسباب الزهو والخيلاء الذى كاد يذهب برؤوس بعض ممثلى معاهدة « فرساي » السابقة !.

مضيت في هذه الخواطر دون أن ألتفت إلى ما يجرى حولى ... وإذا أنا أتنبه على صوت المجتمعين يقررون أن يبدأ المؤتمر بسنماع رأى الأمم الصغيرة ... واتجهت العيون نحوى ... وأعطى الكلام لندوب مصر ... يا للكارثة ! ... جاءك الموت يا تارك ... « المحفظة » ! ... وأصبحت في موقف لا يحسدنى عليه حساد ولا عدال ... أين محفظتى ؟ .. أين ورق ؟ ... ماذا أصنع أيها الناس ؟ ... وماذا أقول ؟ ... ولكنى وقفت على كل حال رغماً عنى وقد مدنى اليأس والخرج باتقاد ذهن ليس من شيمتى ، فانطلق لسانى يقول :

— أيها السادة الأجلاء ... ليس هنا اليوم أم صغيرة ولا أم كبيرة ، إنما نحن أمة واحدة ، وعالم واحد ، يجتمع حول هذه المائدة كما يجتمع أفراد الأسرة الواحدة على مائدة العشاء ... عالم واحد وحرىات أربع . أليس هذا هو الدستور الجديد لدنيانا الجديدة كما جئنا لنشيد بناءها ؟ ... ولا ريب أننا جميعاً متفقون على تلك المبادئ التى أذاعتها الديموقراطيات قبيل انتهاء الحرب ، وجعلتها بمثابة الأركان الأربعة لعالمنا الجديد ... إنها كما تعلمون :

حرية القول والرأى ... حرية العبادة ... والتحرر من العوز والفقر ... والتحرر من الظلم والاستعباد .

إذا تم تحقيق هذه الحرىات لكل أمة من الأمم ، فقد استغنت بها عن أى مطلب خاص تتقدم به إلى هذا المؤتمر الموقر ... إلا ما تعلق بالتفاصيل

ووسائل التنفيذ ؛ فهذا بالضرورة يحتاج إلى البحوث الخاصة التي تعرّض على هذه المائدة ... على أنى حتى فى هذه المباحث والطلبات والتفصيلات التي تتعلق بكل دولة على انفراد ، أرى رأياً ، وأقترح اقتراحاً أرجو أن يحوز موافقة المؤتمر ... ذلك الاقتراح هو : أن لا يتولى الدفاع عن مطالب أمة مندوب هذه الأمة ؛ بل مندوب أمة أخرى ... وذلك منعاً من طغيان عاطفة القومية والوطنية على الشعور بالمصلحة الإنسانية والعالمية ... فمثلاً يتولى الدفاع عن مصالح أمريكاً مندوب الصين ، وعلى العكس ... وتقوم تركيا بالدفاع عن مطالب روسيا ... وفرنسا عن ألمانيا ... ومصر عن إنجلترا ... وهكذا ...

وسكتُ لحظة أمام نظرات مستر « بيفرديج » وهو يفحصنى بعينيه متعجباً ... ولكنه عاد فأخذ الأمر على وجهه الحسن ، فارتسم التفاضل على شفتيه فى صورة ابتسامة رضا شجعتنى وشجعت جميع الأعضاء فهتفوا معاً موافقين على هذا الاقتراح ... ونهض « ديوى » فصافح « شانج كايشك » وقام « سراج أو غلو » فسلم على « ليتفينوف » ، وانحنى « شتراسر » يحى « ديجول » ... ودعانى المؤتمر إلى المضى فى الكلام ، فقلت :

— أرجو أن يكون مستر « بيفرديج » مطمئناً إلى وضع مصير بلاده بين يدى . كما أطمئن أنا إلى وضع مصير بلادى فى يده ، وليسمح لى أن أوجه التفاته إلى مشاكلنا الاجتماعية التي تحتاج إلى علمه وخبرته وفطنته ... فرفع مستوى الفلاحين يتطلب مشروعاً ضخماً يماثل مشروع التأمين الاجتماعى بالنسبة إلى إنجلترا ... وتوطيد مركزنا الاقتصادى ، وزيادة الثروة الأهلية ، والمحافظة على مستواها ؛ سواء بإدخال وسائل إنتاج

جديدة أو بتحسين الإنتاج الزراعى والصناعى القائم ... كل ذلك موكول إلى بحثك المستفيض وهمتك العالية ، أما مسائلنا الخارجية فإنها ستوضع ولا ريب على الأسس العامة التى تقوم عليها العلاقات الخارجية لكافة الدول ، فإنه تحت ضوء هذا المبدأ :

« عالم واحد ، وحرىات أربع » سوف تحل كثير من المشاكل وإن فى صيحة الديموقراطيات المدوية بأن « فى الإمكان القضاء على القوة كوسيلة للأعمال السياسية إذا قبلت ووجهت بقوة أخرى أعظم منها تقوم على دعائم اقتصادية وخلقية ، ويعززها بوليس مشترك ، يمنع أية دولة أو مجموعة من الدول أن تجد الفرصة التى تمكنها من الاعتداء على أية دولة مجاورة لها فى أى مكان فى العالم » ... إلخ ... هذه الصيحة ستمحو ولا شك كل الصعوبات التى وقفت فى سبيل الصداقة بين الشعوب القوية والضعيفة ... هذا فيما يختص ببلادى ، وقد وضعته بين يديك ... أما فيما يختص ببلادك فأمره سهل ، ولا شك أنك قد وضعت فيه البحوث والدراسات ، وملأت مذكراتك ووثائقك مشروعات ... وليس لى إلا أن أمد يدي وأقول لك يا مستر « بيفردج » سلمنى محفظتك ... !

(حمارى قال لى)

حماری و حزبہ

- دار بینی و بین حماری یوما هذا الحوار :
- الحمار : أريد أن ألقى عليك سؤالاً شخصياً ... أتأذن لي ؟ ...
- الحكيم : العفو ... تفضل ! ...
- الحمار : ألم تفكر في الانضمام إلى حزب من الأحزاب ؟ ...
- الحكيم : لماذا ؟ ... القهوة التي أجلس فيها الآن مريحة جداً وتعجبني للغاية ... ولا أريد بها بديلاً ...
- الحمار : خطرت لي فكرة جديدة طريفة ...
- الحكيم : خيراً ...
- الحمار : ما رأيك لو ألفنا نحن حزباً ؟ ...
- الحكيم : سياسياً ؟ ...
- الحمار : عاملاً ... إنك تعلن إلى في كل مناسبة إعجابك بي وبفصيلتي من الحمير ؛ لقوة مراسنا وطول صبرنا وشدة جلدنا على العمل ... فما قولك لو شرعنا في انتخاب نحو ثلاثين حماراً من الطراز الأول ، نؤلف منها الحزب ؟ ...
- الحكيم : حزب من الحمير ؟ ...
- الحمار : ولم لا ؟ ...
- الحكيم : أو تظن أنك أحدثت جديداً في السياسة ؟ ...

- الحمار : على كل حال الجديد هو رئيس الحزب الذى يلون الأعضاء بلونه ...
- الحكيم : ومن ترشح للرياسة ؟ ...
- الحمار : أرشحك أنت بالطبع ...
- الحكيم : أتظن أنه سيوجد انسجام بينى وبين الأعضاء ؟ ...
- الحمار : لا شك عندى فى ذلك ... إنك خير من ينسجم مع هؤلاء الأعضاء ...
- الحكيم : أهذا مدح لى أم ذم ؟ ... ما علينا ... أنا أتشرف بإسناد هذه الرياسة إلى شخصى المتواضع ، ولكنى لا يسعنى إلا الاعتذار ... فالمسؤولية جسيمة ... وأنا أفضل أن أكون عضواً بسيطاً فى هذا الحزب ... من رأى ترشيحك أنت للرياسة ...
- الحمار : أنا لا أصلح ...
- الحكيم : لم لا ؟ ... الانسجام مفقود بينك وبين الحمير ؟ ...
- الحمار : بالضبط ...
- الحكيم : وغير مفقود بينى وبين « حضراتهم » ؟ ...
- الحمار : بالضبط ؛ لأن مسألة الرياسة — كما لا يخفى — دقيقة جداً ... تولد دائماً مشكلات وعقبات وخصومات ... وإنك لتعلم أن كل مشروع نافع لا يفسده غير التنافس على الرياسة ... وكل اتفاق لا يقف فى سبيله إلا الخلاف على الرياسة ... فإذا أردت نجاحاً لمشروعنا هذا ؛ فليكن الرئيس من الخارج ...

- الحكيم : فهتت ... والمبادئ ...
 الحمار : ليس الآن وقت البحث فيها ... المهم هو تشكيل الحزب ،
 وانتخاب الرئيس ، واختيار المكان المناسب أو النشادى
 الملائم .
 الحكيم : عجباً ... حتى أنت يا ...
 الحمار : أأست معى ؟ ...
 الحكيم : أبداً ... أبداً ... ما الذى صنعناه إذن ؟ ...
 الحمار : ماذا كنت تريد أن نصنع أكثر من ذلك ؟ ...
 الحكيم : أشخاص ، ومكان ، وناد ... إنى يا سيدى — كما تعلم —
 لا أعرف لعب الطاولة ولا الشطرنج ... ولست ساحر
 الحديث ، ولا ظريف المجلس ، ولا أحب أن أكون من
 ذوى الجاه ... كل ما عندى قلم لا أرضى أن أسخره فى
 هدم الأشخاص لمجرد الهدم ، ولا أن أستخدمه فى بناء
 أشخاص طمعاً فى الغنى ... إنما هو بخادم بالمجان ، لأى
 فكرة كبيرة أدافع عنها ... تلك هى كل مهمتى وكل
 مطلبى ، والباقى لا وزن له عندى ...
 الحمار : ما هذا الكلام ؟ ... تريد فكرة كبيرة وفلسفة عظيمة ولا
 تريد الهدم ، ولا الغنى ، ولا المال ، ولا الجاه ، ولا ...
 إلخ ... تريد أن تعلن ذلك حتى يقولوا عنا : إنه حقيقة
 حزب حمير ؟ ...
 الحكيم : وأأسفاه ... كنت أحسن الظن بآرائك ...
 الحمار : آرائى كلها صائبة ... ما من مرة أوحيت إليك برأى

خاطيء ... أنسيت يوم جعلنا نخصي ما نشرت من أفكار ؛
فوجدنا أن كل آرائك السليمة الحصيفة خرجت من رأسي
أنا .. وكل آرائك السقيمة السخيفة صدرت من رأسك
أنت ؟ ..

الحكيم : هس ... لئلا يسمعك أحد ...
الحمار : لا تخف .. إلى أخفض صوتي ... ولكن اعترف أن آرائي

التي أوحيت بها إليك ثبت صلاحها في كل حين ...
الحكيم : لا أذكر أنه ثبت صلاح أى رأى من آرائنا — أى آرائك —
اضرب لى مثلاً واحداً ...

الحمار : ما أضعف ذاكرتك ... خذ مثلاً رأيت الأخير الخاص بتعدد
الزوجات ...

الحكيم : « يا ساتر ! ... » ألم تر كيف قامت قيامة النساء في كل
مكان على هذا الرأى ... وقلن : إنه لا يصدر حقاً إلا عن
حمار !؟ ...

الحمار : الحمد لله ! ... أ رأيت ؟ ... إن آرائى لها طابع خاص لا يمكن
أن يخفى ...

الحكيم : لهفى على ذلك الفيلسوف الإنجليزى الذى قرأت خبره
أخيراً فى الصحف ! ...

الحمار : حقاً ... ماذا ترى نساء مصر قائلات عنه ؟ ... إنه أعلن أن
عدد النساء في إنجلترا يزيد مليونين على عدد الرجال ...
ونادى هو الآخر بضرورة التعدد ... وأبدى استعداداه هو
بالذات للاقتران بست زوجات !؟ ...

- الحكيم : الحق أن رأى هذا الإنجليزي أدهشنى ... وأعاد إلى نفسى
بعض الثقة فى حصافة رأيك ورجاحة عقلك ...
- الحمار : من يدرى ؟... ربما كان لى ابن عم نشيط ، نرح إلى بلاد
الإنجليز هو الذى أوحى بهذا الرأى إلى ذلك
الفيلسوف ١٩... :
- الحكيم : لا أظن الحميز تستطيع أن تعيش فى جو إنجلترا ...
- الحمار : وكيف إذن يفكر الفلاسفة هناك هذا التفكير السليم ١٩... :
- الحكيم : لست أدرى ...
- الحمار : يسرنى على كل حال أن نكون متفقين فى الرأى ، أنا وهذا
الفيلسوف الإنجليزي ...
- الحكيم : وأنا يدهشنى أنى لم أسمع حتى الآن أن نساء إنجلترا أقمن
القيامه على زميلك الفيلسوف هذا ... المطالب بست
زوجات ١٩... :
- الحمار : إنى لم أذهب إلى إنجلترا ولا أعرف عنها شيئاً ... ولكن ربما
كانت النساء هناك غير مثقفات ...
- الحكيم : غير مثقفات ؟... نساء إنجلترا ... وفيهن أعضاء فى
البرلمان ١٩... :
- الحمار : عجباً ... إذن لماذا لم ينهضن على الأقل فى البرلمان
صبايحات ضد هذا الرجل ١٩... :
- الحكيم : أظن أن النساء هناك لا يصحن لأنهن يعملن ...

الحمار : أو تركن إذن زميلي الفيلسوف يقول ما يريد ...؟
الحكيم : طبعاً ... وهل كنت تنتظر أن يضعن في فمه اللجام كما
يتمنى نساؤنا أن يفعلن بك وى ...؟

الحمار : أريد أن أسألك سؤالاً محيراً ...؟ بماذا تفسر سعة صدر المرأة
الإنجليزية مثلاً ، وضيق صدر المرأة المصرية ...؟ ما السر في
أن نساء إنجلترا لم يغضبن عندما قال ذلك الكاتب : إنه يريد
التزوج بست زوجات ، وغضب نساؤنا عندما قلنا بزواج
أربع فقط ...؟ هل المصرية تقدس حقوق المرأة وتحرص
على حريتها أكثر من أختها الإنجليزية ...؟

الحكيم : سعة الصدر وضيقه ... ليست ظاهرة مقصورة على
المرأة وحدها ... ولكنها ظاهرة شاملة تلاحظ في حياة كل
شعب ، تبعاً لدرجة عراقة في الحرية والحضارة والقوة ؛
فالشعوب الحرة القوية هي في الغالب أوسع الشعوب صدرأ
وعقلاً ... إن مسألة الزى الأورنى مثلاً . أو لباس الرأس لم
تصادف في اليابان أى صعوبة أو إشكال ... وعلى الرغم
من التقاليد اليابانية القديمة ، والوطنية اليابانية العريقة ؛
لم نسمع يابانياً ذكر كلمة « القومية » أو « الوطنية »
وهو يرتدى الزى الأورنى ، لأنه لم يخطر قط بباله
وهو يلبس « القبعة » أنه سيخلع « قوميته » ... أما
الشعوب الضعيفة فتوهم دائماً أن حريتها أو قوميتها
أو عقيدتها ستخلع منها وتذهب عنها بلفظ أو بكلمة أو

برداء ؛ فهي تنفعل وترتعد وترتاع لمجرد المظاهر والألفاظ
والكلمات ...

الحمار : لا بد لهذا من علاج ... ما علاج ذلك ؟ ...
الحكيم : حرية الكلام حتى يألف الناس الألفاظ ولا يرتاعوا من
الكلمات ... وحرية الفكر والعمل والتصرفات حتى يعتاد
كل فرد احترام رأى الآخر وعمله وتصرفه دون أن يكون
مضطراً إلى اتباعه ... الحرية هي المنبع الصافى لسعة الصدر
والعقل ... الحرية هي الطريق نحو القوة ... الحرية هي
انتصار الإنسان على نفسه وعلى كل سخافة إنسانية ...
الحرية هي دواء كل شيء .

الحمار : إذن فمن واجبنا أن نتكلم ...
الحكيم : دائماً ... حتى يسقط القلم من بين أصابعنا الميتة ...
الحمار : لا تقل إذن آرائى دائماً خرقاء ...
الحكيم : إن الخرق أو الهراء الذى يخرج من أفواهنا فيه أيضاً بعض
النفع للناس ... إنه يجعلهم يتسمون سخرية منا على
الأقل ... وإذا استطاعوا أن يسخروا فى ابتسامة جميلة لا
يعلوها زبد الغضب ، فقد ساروا خطوة نحو الحرية ...

الحمار : كنت تريد لحزينا مبادئ ... ها هو ذا مبدأ عظيم ! ...
الحكيم : الحرية الاجتماعية ؟ ...
الحمار : نعم ... ما قولك ؟ ...
الحكيم : لا مانع عندى الآن من تأليف الحزب ... اجمع

— ٥٧ —

الحمير! ...

الحمار : هنا صعوبة بدت لي الآن! ...

الحكيم : ما هي؟ ...

الخنار : هل تظن من السهل أن نجد الحمار الذي يعترف بأنه

حمار؟ ...

الحكيم : إذن لم يأن الأوان لتأليف هذا الحزب ...

حمارى والذهب

رأيت حمارى ذات يوم مفكراً مهموماً ... فجلست بجواره
صامتاً محترماً ما هو فيه ... إلى أن أحس وجودى ... فرفع
رأسه نحوى ... وجرى بيننا هذا الحديث :

الحمار : وأخيراً ؟ ...

الحكيم : وأخيراً ماذا ؟ ...

الحمار : مستقبلى ... ألم تفكر فى مستقبلى ؟ ...

الحكيم : عجباً ! ... لأول مرة أسمع حماراً يتحدث فى مستقبله ! ...

الحمار : ما وجه العجب ؟ ... ألسنت مخلوقاً حياً يعيش خاضعاً

لقانون الزمن ؟ ... أليس لى ماضٍ وحاضر ومستقبل مثل

جميع المخلوقات والكائنات ؟ ... لقد عشت معك حتى

الآن عارياً ... لا سرج ذهب ... ولا « رشمة » فضة ...

ولا برذعة مرصعة ... ولا ...

الحكيم : شىء جميل ! ... أهذا ما يشغلك الآن ؟ ...

الحمار : هذا ما يشغل اليوم كل إنسان ... إن الناس كلها من حولنا

تفكر فى الذهب ... وتعيش للذهب ... وتنفس

بالذهب ... وأنا وأنت قاعدان ننظر إلى القوم من عل

- متدثرين في أسمال أفكارنا وأطمار فلسفتنا ...
- الحكيم : اسمع أيها الحمار ... فرغنا من آرائك السياسية ... ومن مبادئ حزب الحمير الذى أشرت بتأليفه ... واليوم تريد أن تفتح لى باب أطماع جديدة ؟ ...
- الحمار : إني أفتح لك باب أعمال ... وما دمت أنا الذى يفكر لك ...
- الحكيم : فكر لى فى شىء نافع من فضلك ! ...
- الحمار : أنفع من الذهب ؟ ... يا للعجب ! ... هنالك لحظات أتساءل فيها أنا الحمار أم ...
- الحكيم : الزم أدهك ... لقد بدأت أضيق بك ذرعاً .. وأشعر أننا أصبحنا غير متفقين فى كثير من الأفكار والمشارب والميول ...
- الحمار : بل أنا الذى ضيقت وضجرت و « غلبت » !
- الحكيم : فلنفترق إذن ! ... ما الذى يرغمننا على هذه الحياة المشتركة ؟ ... وعلى هذه الصحبة التى لا أجنى منها غير سوء السمعة ! ... اذهب إذا شئت ، وابحث لك عن صاحب من ذوى المال — وما أكثرهم اليوم — يغطى عريك المزعوم بالذهب والفضة . وسترى بعد ذلك هل شعرت بالدفء حقاً وعلى ظهرك ذلك الغطاء الثمين ...
- الحمار : وهل أنا شاعر بالدفء الآن وأنا عارى الظهر ؟ ... !
- الحكيم : بالطبع ... لو كان لك قلب يعرف حرارة الإيمان ...
- الحمار : يا لهذه الكلمات ! ... إنك تكسوني بالكلمات ...

وتغذيني بالكلمات ... ولا أجد شيئاً عندك غير
كلمات ...

: ولن تجد عندي شيئاً غيرها ... الحكيم

: من سوء حظي !. الحمار

: حقاً ... ربما كان ذلك من سوء حظك ، لأنك حمار . الحكيم

: الزم أدبك ... يكفي أني تحملت عشرتك طول هذا الحمار

الزمن ، وأنت لا يتحملك أحد ... ولكن آن الأوان أن
أتركك الآن لو حدثك ... لتأكل وتشرب كما تشاء من
أفكارك وكلماتك ...

: اسمع ... إنى لا أطيق أحداً يحقر الأفكار والكلمات !... إن الحكيم

الكلمات هي التي شيدت العالم ... إن محمداً لم ينشر
الإسلام بالذهب ؛ بل بالكلمات ... وإن عيسى لم ينشئ
المسيحية بالمال ؛ بل بالكلمات ... الكلمات الصادقة
والأفكار العالية ، والمبادئ العظيمة هي وحدها التي قادت
الإنسان في كل أطوار وجوده ، وبنت الأمم والشعوب في
كل أدوار تاريخها ... ما من حركة وطنية أو قومية أو
إنسانية قامت أول أمرها على شيء غير المبادئ
والكلمات ... وعندما يظهر الذهب آخر الأمر بريقه
ورنينه ، فاعلم أن أوان الإنهيار قد آن ... وأن هذا البريق
سوف يذيب المبادئ بأشعته الساحرة ... وأن هذا الرنين
سوف يصمم الآذان بجرسه الفاتن عن سماع الكلمات ...

الحمار : تريد من ذلك أن تقول : إن الذهب عدو المبادئ ؟! ...
 الحكيم : بلا شك ؛ لأنه هو ذاته ينقلب إلى مبدأ ... مبدأ خطر طاغ
 متأله ... يُنسى الناس كل المبادئ الأخرى الحقيقية السامية
 النبيلة ... انظر إلى مجتمعنا اليوم ، وقل لي ما هو المبدأ
 الغالب المسيطر على كل النفوس ... لقد قتلها أنت نفسك
 الساعة : إنه الذهب ... لقد تحكم حتى أصبح هو المقياس
 لقيم الرجال ... ألا تسمع أن كل رجل كفاء يتباهى بأن
 دخله من الشركات كذا ألف ؟! ... فإذا طلب لواجب
 قومي وازن في الحال بين خسارته المالية هنا وربحه المالى
 هناك ... وجاراه المجتمع في حسابه المادى صائحاً :
 « لا مصلحة لفلان في أداء هذا العمل ؛ لأنه سيخسر بعض
 موارده من كيت وكيت » ..
 أما أن يقام وزن للواجب المعنوى في ذاته ، فهو أمر لم
 يعد في بال أحد ... المعنويات والمثل العليا فقدت قيمتها
 في سوق الذهب ؛ حتى الأطباء نسوا أحياناً واجبهم
 الحقيقى ... فأصبح أغلبهم صيارف نقود ، يفخر كل
 منهم بدخله السنوى ، ولا يفخر بعمله الإنسانى ...
 والزواج أصبح هو الآخر علاقة مكسب وخسارة في
 ميدان المال ... فإذا تزوج أحدهم تساءل المجتمع من
 الفور عما تملك العروس ؛ لأن هذا هو المبدأ الذى تقوم
 عليه الآن هذه الشركة « المقدسة » !... ورجال العلم

تركوا علمهم ونظروا إلى الدرجات والمرتبات ؛ فلن تجد في بلادنا عالماً منكباً على عمله تحت « مكرسكوب » ليل نهار ليستكشف جديداً دون أن يكون له مطعم غير أفكاره العلمية ونجاحها ، وخدمة الإنسانية لذاتها ؛ لأن هذه الأفكار والمبادئ ذابت في جو هذا المجتمع الذهبي ... وانصهرت هذه الكلمة من جديد في قالب من ذهب ... فإذا الناس ينقلبون تجاراً ... كل فرد في الأمة يريد أن يكون تاجراً ؛ بل إن لكل شخص اليوم عملين : التجارة وعمل آخر ... كل إنسان الآن تاجر إلى جانب عمله الظاهر ... لأن الذهب أعمى بصائر الناس ولعب بعقولهم وقلوبهم إلى حد أنساهم أنفسهم ومدلول لغتهم ... فغدا للناس قاموس جديد كل كلماته : الربح ... الربح ... الربح ... والمال ... المال ... المال ... والثراء ... الثراء ... الثراء ...

الحمار : إذا كان هذا هو قانون العصر ، فلماذا تريد مني أن أخرج على القانون ؟ ... إلى كائن عصرى ... من واجبي أن أنطوى تحت لواء « المثل الأعلى » المسيطر في زمانى ... وما دامت الأفكار والكلمات قد ذهبت بدعتها من عصرنا العملى ... فأنا أخلع عن نفسى تلك البدع القديمة ...

الحكيم : أيها الحمار العصرى .. إن الأفكار والمبادئ ليست من البدع القديمة في كافة الشعوب ... انظر حولك تجد شعوباً

لم تنزل تبذل دماءها سخية من أجل أفكار ومبادئ... ما هو الدافع الذى يدفع هؤلاء الملايين من الشباب الناضر إلى الجود بأرواحه ودمائه؟... أهنا لك دافع آخر غير بضع كلمات ١٩... نعم... بضع كلمات آمن بها فدفعت فيها دمه الغالى... كلا... إن الأفكار والمبادئ ليست من البدع القديمة إلا فى نظرنا نحن... إن الكلمات الصادقة العظيمة بخير... وهى لم تنزل حافظة قوتها فى كثير من الأمم والشعوب... وهى ما برحت جذيرة أن تبذل فى سبيلها المهج والأرواح، قديرة على أن تثير فى القلوب حب التضحية بغير ثمن...

الحمار : إنك لتدهشنى... كيف استطاع عصر واحد أن يجمع هذا التناقض؟... دماء تسيل فى مجرى... وذهب يجرى فى مجرى آخر ١٩...

الحكيم : لقد اجتمع الضدان فى كل زمان... منذ فجر الخليقة والعظمة تسير إلى جانب الحقارة... والسمو إلى جانب التدهور... والعلو إلى جانب الخفض... ولكن العبرة : أى الطريقين تختار لنفسك ولأمتك؟

الحمار : إذا سألتنى أن أختار لنفسى فأبى...

الحكيم : انطق...

الحمار : دعنى أفكر... فإنك تعلم أنى لا أعطيك ثمرة تفكيرى إلا بعد ترو وتأمل...

— ٦٤ —

الحكيم : مجرد التردد في الاختيار يجعلنى أحكم عليك بأنك
حمارى ...
الحمار : أتظن أنى وحدى؟! ...! ا طرح سؤالك على الناس ...
ونخيرهم بين المال والمبادئ ... ثم احص بنفسك عدد
المترددین ...
الحكيم : آه ... والله « غلب حمارى »! ...!

حمارى والسياسة

جاءنى حمارى أخيراً ثائراً يزد وينق ويرعد قائلا :

— اسمع ... إلى مصمم هذه المرة تصميماً أكيداً ، ومصر إصراراً تاماً ، — فأياك أن تثبط عزيمتى أو تحاول منعى ، أو تتدخل فى شئونى ، أو تعرقل مشروعاتى أو تفسد تفكيرى ، أو تبرد حماسى ... أو تكتم شعورى ، أو تطفئ لهيبى ... أو ...

— سبحان الله ... سبحان الله ... ما هو الموضوع أولاً ؟ ...

— الموضوع يا سيده ، اذ قررت نهائياً الاشتغال بالسياسة ...

— على الرحب والسعة ... ومن قال لك إلى معارض ؟ ...

— أنت موافق إذن على دخول فى معترك السياسة ؟ ...

— موافق جداً ...

— هذا هو عين العقل ... الواقع أنها كانت سبة أن يجلس أمثالنا هكذا

ينظرون إلى أحداث بلادهم ولا يحركون رأساً ولا ذنباً ... نحن الذين

نشأنا فى هذا البلد ، ونعمنا بخيره وخميره ، ورعيننا برسيمه ونجيله ،

وشربنا من ماء نيله ... كان حتماً علينا أن يكون لنا يد فى مصيره ... ونحن

من أصحاب الفكر الراجح ، ومن قادة الرأى الناضج .

(حمارى قال لى)

— ٦٦ —

فنظرت إلى حمارى ملياً وقلت :

— أنت تتحدث عن نفسك بالطبع !... —

فلم يعن بالالتفات إلى ملاحظتى ومضى يقول :

— أنها لضرية يجب أن يؤديها أمثالنا ، فالضرائب الواجب أدائها للدولة ليست مجرد المال الذى يدفع للمحصلين ، — ولكنها المواهب وثمراتها ، والقرايح وآثارها ، وإن نتاج الأذهان لا يقل عن نتاج الألبان ثروة للأمة ، وأنا كما تعلم لست من فصيلة البقر ولا الجاموس حتى أودى ضريرتى من نتاج ضرعى .

— مفهوم .

— إذن كان يجب أن أساهم فى الحركة السياسية بنصيب ... لذلك قررت الانضمام إلى حزب من الأحزاب .

— هل وقع اختيارك على حزب من الأحزاب بالذات ؟...

— لا ... لم يحدث بعد ... وهذا بالضبط ما جئت أستشيرك فيه ... على أنه توجد صعوبة قد تقف فى سبيل ... يحسن بى أن أذكرك بها حتى تكون على بينة من الأمر قبل الإدلاء بمشورتك ... تلك الصعوبة التى تخيفنى تتعلق بشخصى ... أعنى :

هل تظن أنى سأجد أحزاباً تقبل أن ينضم إليها حمير .

— اطمئن من هذه الجهة ؛ ولا يكن عندك خوف !... —

فلمع الفرح والأمل من عيني حمارى وقال :

— إذن قد ذلت الصعوبة ... لندخل فى جوهر الموضوع ... ما هو

فى نظرك الحزب الذى يتفق مع مبادئى ؟...

— أحب أولاً أن أتشرف بمعرفة مبادئك ...

— مبادئ معروفة : العمل لمصلحة الغير وإنكار المصلحة الشخصية ... ذلك هو المأثور عن جنسنا وفصيلتنا منذ ظهرنا على الأرض ... لقد عملنا وكدحنا وجهدنا لما فيه خير الآخرين ... ولم نسأل لأنفسنا أكثر مما نستحق بعرق الجبين ... فلم يعرف عنا أننا سرقة كما تسرق القبط ... ولا نعمنا بالترف والدلال كما تنعم الخيول ... ولا طمعنا في أن نعزز ونكرم ونلقم السكر في أفواهنا ولا نعمل شيئاً ؛ بل حياتنا هي العمل للغير ... العمل للنفع العام ... ولا شيء غير ذلك ... حتى لقد جرى الناس على أن ينعثوا من يكذب ويمجد بأنه « حمار شغل » . فمبادئنا هي كما ترى أن نتج ونتج ، ولا نبتغي من وراء إنتاجنا منفعة لذاتنا .

— تلك بالطبع مبادئك باعتبارك حميراً ... ولكنك تريد على ما فهمت الانضمام إلى حزب من أحزاب البشر ١٩ ...

— نعم ... وهل يقتضى ذلك أن أغير هذه المبادئ ١٩ ...

— تغيير طفيف ... كلمة واحدة ضعتها خلف عبارتك ليكون مبدؤك سليماً في عرف البشر ... ضع كلمة « لا » أى : لا إنتاج للغير ، ولا إنكار للذات .

— عجباً ... وما فائدة الحزب السياسى إذن ؟ ...

— فائدته نفع ذاته ... أليست هذه فائدة ؟ ...

— والآخرين ؟ ...

— أى آخرين ؟ ...

— الفصيلة ، أو الجنس أو الأمة ، أو الدولة أو غير ذلك من الأسماء التي تطلق على المجموع ؟ ...

— لا تنس أننا نتكلم الآن في محيط السياسة ... والسياسة هي اللباقة أو المهارة ، أو الخفة أو البراعة ... أو الكياسة التي تستطيع بها أن تسحب خاتم السلطة من إصبع منافسك وتضعه في إصبعك إلى أن يغافلك المنافس وينتهز منك فرصة فيسحب بدوره الخاتم من إصبعك ويضعه في إصبعه ... وهكذا دواليك ... حتى يتعب أحداً من هذه اللعبة اللذيذة ، وقلما يتعب ... فالمسألة إذن لا علاقة لها بإنتاج ولا عدم إنتاج ...

— والشعب ؟ ... أهو قانع بمجرد المشاهدة ؟ ...
— ومن قال لك إنه قانع ؟ ... لقد دخل هو أيضاً حلبة اللعب ... إن السياسة علموه كيف يتذوق تلك اللعبة .. فأصبح أكثر منهم تهاقناً عليها واهتماماً بها ... وأشد شوقاً إلى رؤية الخاتم ينتقل من يد إلى يد ... ولا يطيق أن يصبر وقتاً طويلاً عليه وهو في إصبع واحدة ... شأن المقامرین الذين لا يطيقون رؤية كرة « الروليت » تقف دائماً على رقم واحد بلا تغيير ... فهم يهللون ويهتفون للكرة كلما وقفت على رقم جديد ... ويفرح الراجح الفرح والترح بالتناوب ، وهكذا دواليك ...
— والشعب مسرور بذلك ؟ ...

— كل السرور ... ولقد آنست منذ زمن الحكومات هذا الميل فيه ... فعملت على تعميم هذه المتعة بين كل الطبقات ... وتيسير اشتراك كل فرد في هذه اللعبة ، فجرت على سنة بدیعة : وهي أن تأتى كل حكومة ومعها برلمانها وانتخاباتها ... أى « عدة الروليت » الخاصة بها ... فينصب المولد ، وتزدحم الجموع ، وتنتقل النقود من جيب إلى جيب ... ويعلو

— ٦٩ —

الصباح من فم إلى فم وتمتد الموائد وتقام الولائم ... ويكثر الطعام والشراب ، والبذل والعطاء ، ويغمر في جو صاخب كجو الأعياد رداً من الزمن ينسيه شقاءه ، ويلهيه عن مصيره ...
— هذا شيء جميل .

— جداً ... على أن هذا كله كان يحدث في الماضي ... أما الآن فنحن أمام ظاهرة جديدة ... إن ثراء الحرب قد غير عقلية الناس فيما يظهر ... ما من أحد يريد أن يخسر ... لذلك كثر اللعب في عين الوقت على رقمين أو أكثر ... هذا بين اللاعبين على مائدة السياسة من أعضاء البرلمانات والأحزاب ... وقد انتقلت العدوى إلى الشعب ، فجعل هو الآخر مبدأه ذلك المثل الشعبي القديم :

« من تزوج أمي قلت له يا عمي »
والأم هنا هي الحكومة أو السلطة ... لذلك لاستغرب خروج الناس أفواجاً من الحزب الذي خلا من السلطان ، ليدخلوا أفواجاً في الحزب الذي لمع فيه الصولجان ، كأنهم يخرجون من دار « سينما » تعطلت فيها الرواية ، ليدخلوا المسرح الآخر الذي أضىء بأنوار الرواية الجديدة ... ما دام هذا هو الاتجاه العام فنحن سائرون بدون أى مجهود نحو توحيد الأحزاب .

— إذن فأنت لا ترى لي أن أنضم إلى حزب بالذات ؟ ...
— انضم كما تشاء ، ولكن على المبدأ الشعبي :

« من تزوج أمي ... »

— بالضبط .

— ولكن ...

— ٧٠ —

— لا تقل ولكن ... ولا تكن حماراً ... إن عناد الحمير وصلابة رؤوسها لا تنفع في السياسة ... واليوم كل شيء لين مرن ، لا في المبادئ وحدها ، ولا في المحيط السياسي وحده ، بل في كل محيط ... حتى بين الموظفين المسؤولين عن تنفيذ القوانين ... ألم تسمع بخبر ذلك المأمور الذى حبس مجرمًا من مجرمى التموين تطبيقاً للقانون ، فاتصل به أحد ذوى النفوذ وأمره أن يفرج عنه فوراً ... فأخرجه من الحبس بعد الصفع والإهانة ... وأجلسه فى مكتبه ... ووقف هو بين يديه قائلاً :
« والله لا يصح أن تنصرف عنا قبل أن تشرب القهوة ! ... »
— يا للعجب ! ...

— لباقة ... أليست لباقة ؟ ...
— وأسفاه ! ... إلى لا أملك هذه اللباقة ...
— إذن ... اجلس حيث أنت ... ولا تطمع فى الاشتغال بسياسة أو إدارة ! ...
— بينى وبينك ... ألا تظن أن هذا الحال فى مجتمعكم يجب أن يصلح ؟ ...

— من فضلك لا تلق على أسئلة عريضة ... لأن ذلك سيجرنا إلى التساؤل : من الذى يصلح ؟ ... أهو المجتمع الذى يصلح الحكومة ، أم الحكومة هى التى تصلح المجتمع ؟ وهذا لا أجيب عنه إلا إذا أجبتنى أنت : هل البيضة من الفرخة أو الفرخة من البيضة ؟ ...
— دعك من السفسطة ! ... من يدري ؟ ربما استطعت أنا أن أصلح ... إن اشتغالى بالسياسة على مبادئى قد يعطى على كل حال خير مثل من أمثلة ...

— ٧١ —

— من أمثلة الحمق والقناعة والغفلة الجديرة بحمار... هذا ما سيقال
عنك وعن مبادئك ...
— فليقولوا ما شاعوا ...
— إلى أعلم منذ الآن ما سوف يحدث .. فاجلس حيث أنت ، واسمع
نصيحتي !... إنك لن تؤثر فيهم بمبادئك ... ولكنهم هم الذين سيؤثرون
فيك بمبادئهم ... ولن يمضي وقت طويل حتى ترى أنك أنت لم تعد
حماراً .

حمارى والطالبة

قال حمارى يوماً : إنه يلحظ أنى بدأت أتبرم بمؤنة أكله وهو لا يعمل شيئاً غير إبداء الآراء ، فاقترح على أن يقوم لى بوظيفة « السكرتير » الخاص أحياناً ... فقبلت ... وجاءنى أخيراً يقول : إن بالباب فتاة من طالبات الجامعة تريد مقابلتى ... فقلت له : إن فكرتى عن الجامعة المصرية وطلبتها وطلبتها غامضة كل الغموض . فأنا قد تخرجت فى مدرسة الحقوق القديمة ، قبل أن تنشأ الجامعة فلم أحضر عهود النظم الجامعية فى بلادنا ، ولم أشهد ذلك الحدث الخطير فى تلويح الشرق : وهو جلوس الفتى والفتاة معاً تحت شجرة العلم المورقة ... فأجابنى بأنها إذن فرصة سانحة لمعرفة ما لم أعرف ... فقلت له بعد تردد : « أدخل الطالبة على شرط ... » فسأل عن الشرط . فأجبته : هو أن لا يتدخل فى حديثي معها ، لا بصفته حماراً ، ولا سكرتيراً ؛ بل يتتحنى جانباً ولا ينبس بحرف خشية أن يلفظ كلمة من كلماته لى تصغرنى فى عينها ... وكان شهماً فقبل ... ومضى فأحضر الفتاة وأجلسها أمامى ، وقبع هو فى ركن بعيد ... وتركنا تبادل هذا الحديث :

قلت لها :

— اسمح لى أولاً أن أدعوك حواء ...

فقالت من فورها :

- ولكن اسمى الحقيقي ...
- لا شأن لى باسمك الحقيقي ... أنت فى نظرى الآن تمثلين كل طالبات الجامعة ، وعلى هذا الاعتبار أوجه إليك الكلام ... لقد دخلت يا حواء جنة العلم لتقطفى إلى جانب الرجل أشهى ثمار الفكر ..!
- أولسنا مساويات للرجل فى كل شىء ؟ ...
- لست أدرى ... إنما الذى أريد أن تعرفيه هو : أنك حواء فى جنة ...
- الأورمان بالجيزة ...!
- إنى لا أمزح الآن ؛ لأن كلامى يرمى إلى مغزى يجب إدراكه حتى لا يتكرر وقوعك فى عين الغلطة ...
- أى غلطة ؟ ...
- إنى أخشى دائماً دخول حواء الجنة ... أى جنة ! ...
- إن الجنة لا تسمى جنة إذا لم تكن فيها حواء ... لا توجد جنة بغير حواء ! ...
- هذا صحيح للأسف ... لكن ...
- قل لى بالصراحة : ألا تأسف على أنك لم تحضر عهد الجامعة الحالى ؟ ...
- يخيل لى أنى لو كنت حضرت جامعة اليوم لما نجحت ولا أفلحت ! ...
- ما معنى ذلك ؟ ...
- لا تسألينى إيضاحاً ولا بياناً ... افهمى هذا القول على الوجه الذى يروق لك !! ...

— حذار أن تشك في مقدار فهمي !... إلى أفهم جيداً ...
 — ذلك أخشى ما كنت أخشاه ... لا تخرج الجامعة مثيلات لـ
 « باحثة البادية » ولا قرينات لـ « مى » ... ولكنها تخرج شيطانات
 صغيرات ؛ قد أكسبن الخروج إلى المجتمع ، والاختلاط بالرجال ،
 والاتصال بدوى الأفهام شيئاً كثيراً من الفطنة والدكاء ...
 — ولماذا تخشى ذلك ؟...
 — لأن الدكاء سلاح خطر ، لا ينبغي أن يوضع في يدي امرأة إلا بعد
 إعداد روحى طويل ...
 — ولماذا لا تقول ذلك أيضاً بالنسبة إلى الرجل ؟...
 — الرجل !... الرجل ... دائماً الرجل !... اتركى الرجل
 وشأنه ... نحن الآن نتكلم في المرأة ...
 — آه ... يا للمرأة ... إذا ابتليت بالجهل فهي مخلوق تافه ... وإذا
 منحت الدكاء فهي مخلوق خطر !...
 — من غير شك ... تأملى أمر حواء الأخرى الحقيقية ... لقد كفى أن
 يلقنها « إبليس » شيئاً من الإدراك ، وأن يلقى في روعها قبساً من الدكاء ؛
 لتخرج على الفور آدم من جنة عدن !...
 — لست أدري ماذا أجيب دفعاً لهذا الاتهام الشنيع ... إنكم معشر
 الرجال لتستخدمون كل ذكائكم في إلقاء مسئولية الأخطاء العظمى على
 كاهل المرأة !...
 — هذا على كل حال استخدام لا ضرر فيه ...
 — لا ضرر في أن تلصق بنا نحن المخازى والأباطيل !... أرايتم كيف
 تضعون دائماً بين مشاعركم ومشاعرنا ، ومصالحكم ومصالحنا ،

وشؤونكم وشؤوننا هذا السد المنيع! ... حقاً! ... إن المرأة والرجل مخلوقان مختلفان منفصلان ... وأنتم الذين أردتم ذلك ...
— الطبيعة هي التي أرادت ذلك ... ولكن المرأة لا تريد أن تكف عن تكذيب الطبيعة والصراخ في وجهها :

« لا فاصل بيني وبين الرجل ... إلى مساوية للرجل في كل شيء ...
— لا تهتموا الطبيعة أيضاً ظلماً وباطلاً ... إنها هي التي شئت ألا يكون بيننا فرق من تلك الفروق التي تصطنعونها ... تذكر يوم كنا في الجنة ... أعني حواء الأخرى وآدم الآخر ... ماذا كنا يعملان طول النهار ...؟ ماذا كانت تصنع حواء؟ ... أظنك لن تزعم أنها كانت تصنع لآدم صينية بطاطس في الفرن ، لقد كنا متساوين في كل شيء .. في نوع الحياة ، في نوع الواجبات والحقوق ، والمشاكل والأفكار ... كل منهما كان يقطف فاكهته بنفسه لنفسه ... وكل منهما كان يفعل ما يفعل الآخر ، كأنهما زميلان ندان ... إلى أتحداك الآن أن تذكر لي عملاً واحداً انفردت به حواء دون آدم أيام كنا في الجنة! ... تكلم ... لماذا لزممت الصمت؟ ... اذكر مثلاً واحداً فقط؟ ...»

— سبحانه الله! ... كيف تريدني مني أن أعرف نظام الحياة الزوجية في الجنة؟ ... من أراي كيف كان توزيع العمل في أسرة آدم وزوجته؟ تلك مسألة فيما أظن لا يعرفها غيرهما ... ومن يدرى ... ربما كانت حواء هي التي كان عليها هناك أن تقطف الفاكهة وتغسلها جيداً في نهر الكوثر وتعد المائدة لآدم ...

— أبداً ... أبداً ... أبداً ... من أين أتيت بهذا الكلام ... هذا خيالك باعتبارك رجلاً! ...

— إني أتحدّك أن تذكرى من الذى كان « يفصل » من ورق شجرة التين الأثواب التى كان يستر بها آدم بعض أجزاء بدنه ...! إني أراهن على أن حواء هى التى كانت تقوم على الأقل بمهمة التفصيل والتطريز ...
— آه معشر الرجال ...! ما أشد رغبتكم فى أن تجعلوا منا طاهيات لكم وخادمات ...!

— فى هذا تشرىف لقدرِكن ...

— ماذا تقول ؟ ... ماذا تقول ..؟

— أقول : إن مجد المرأة الخالدة هو فى أن القدر قد كتب على الرجل أن ينحنى ليطعم من راحتها ...! أنت التى تمدّين الطفل ، والشاب ، والرجل بالغذاء ؛ أى مادة الحياة ... أنت التى جعلت منك الأساطير والديانات القديمة صورة لآلهات الخصب ، ورمز الفكرة « الحياة » ...! — لن نتخذعنا بهذا الكلام المنمق ... نحن نرفض هذه المهمة الصغيرة ... مهمة إطعامكم ؛ لأننا نحس فى أنفسنا القوة والقدرة والكفاية للقيام فى معترك الحياة بمهام أخطر من ذلك وأعظم ...! — مهام أخطر وأعظم ...؟ مثل ماذا ؟ ...؟

— نحن نتعلم فى الجامعة مثلما تتعلمون ، وتخرج فيها بشهادات فى الحقوق ، والطب ، والآداب ، والعلوم ؛ مثلكم تماماً ، وأحياناً كثيرة نسبقكم ونزكم فى النبوغ ، فلماذا لا يكون لنا مثل وظائفكم الهامة فى المجتمع ...؟

— ما هو أقصى ما تطمعن فيه من تلك الوظائف الهامة ...؟

— لماذا لا يكون لنا مثلاً حق الانتخاب لعضوية البرلمان ...؟ لماذا لا تكون منا سياسيات ومستشارات ووزيرات ...؟ لم لا ؟.

— وأأسفاه! ... أهذا أبعد وأرفع وأعلى ما تنظرون إليه ؟.

— ولم لا ؟ ... ولم لا ...

— أنا شخصياً لا مانع عندي مطلقاً من أن تهبطن إلى هذا المصير! ...
ولكن بقية الرجال منذ فجر التاريخ قد خصّو كُن بمنصب يحسبون أنه أسمى
من كل منصب! ...

— أهنك منصب أسمى من المستشار والوزيرة ؟ ...

— نعم ... الإلهة والملكة! ... ما أحمق الرجال! ... طالعي جيداً أيتها
الآنسة كتب التاريخ ؛ بل تأمل تاريخ أى رجل : إن الخطاب في الغابة يكذب
كالعبد الرقيق طول نهاره ليعود عند الأصيل إلى ملكة وإلهة في داره ،
يصبح عند أقدامها أجز جهاده ... وإن « نابليون » بعد كل معركة كان
يرسل إلى أعتاب « جوزفين » أخبار انتصاراته كأنها القرايين ... وإن كل
عظيم إنما يعمل ويجهد ، ويناضل وينهزم ويفوز ، ووراء خاطره شبح امرأة
موجودة أو غير موجودة : أم ، أو زوجة ، أو صديقة ، يهدى إليها آخر
الأمر ثمرات نضاله ...

ما كفاح الرجل لإقربان للمرأة ... إن حواء يوم أخرجت آدم من
الجنة ، إنما أخرجته لتسود عليه ... لقد قلت لى أنت : إن المساواة بينهما
في الجنة كانت تامة ؛ فلأصدقك ... ولكن المرأة لا تريد المساواة ... إنها
تريد للسيادة ... وهى في الجنة مستحيلة ... فكان عليها إذن أن تخرج
برجلها إلى الأرض والحياة والكفاح ، لتجلس هى على العرش وتجعله
عندها عبداً رقاً ؛ يكذب من أجل لقمة من يديها ... حواء هى دائماً
حواء ... لستن أنتن الطاهيات الخادومات ؛ بل نحن معشر الرجال الخدم
والعبيد ، نُشقى حياتنا من أجل لقمة من أيديكن ... ومع ذلك لا نسمع

منكن غير المن والترفع .

— ها ... ها ... ها ...!

— تضحكين؟ ...!

— حقاً ... أنت أنت لا تتغير ... ترفعنا وتخفضنا كما تشاء ، وتجد مع

ذلك الأسباب والحجج التي يصعب دفعها ...!

— لو عرفت الحقيقة لأدركت أني أريد أن أحتفظ لكن دائماً بمنصبكن

السامى الخطير ، منصب الإلهة والملكة ... لا حباً لسواد عيونكن ؛ بل

لأنى أعلم أن الرجال لا يستطيعون أن يعيشوا ، وأن ينتجوا بغير أن

تحكمهم الأيدي الناعمة ...! إنى لا أنظر إلى مصيركن ؛ إنما أخشى على

مصير الرجال إذا اخشوشنت أيديكن ؛ ففقدت سحرها الذى يدفعهم إلى

الكفاح والنضال والعظمة ...! إنى أريد أن أحافظ على « الإلهة والملكة »

فيكن ؛ كما كان العباد الوثنيون يحافظون على أصنامهم ؛ لذلك أخشى

عليكن من تأثير الجامعة ... جامعة الرجال ... التي قد تصب عقولكن فى

قالب عقل الرجال ، وتسلب « معاملها » الكيمائية من أيديكن النعومة

اللازمة لأيدى الإلهات والملكات ... أنت الآن يا حواء فى « الجامعة »

تعودين إلى المساواة بالرجل كما كانت حواء الأولى فى « الجنة » ... فأين

اليوم « إبليس » الذى يغريك بالخروج منها ، كى تستعيدى فى يديك

السيادة ...؟

— لا تؤاخذنى ...! يا للهول ...! إلى ألمح فى عينيك بريق نظرات

إبليس ...؟ وانطلقت الفتاة خارجة وولت هاربة ...

حمارى والقاضية

وذكرنى حمارى ذات ليلة بعهد اشتغالى فى القضاء ، ولعله أراد — فيما يظهر — أن أسليه وأرفه عنه ، فطلب إليّ أن أتصور جلسة قضائية فى محكمة ترأسها امرأة ، لما يتوهمه من رأى فى المرأة ... فلم يستطع ذهنى أن يتخيل ذلك المنظر ... وتركته آخر الليل ، وذهبت إلى فراشى ... ونمت نوماً عميقاً ... فإذا بى أرى حلماً مزعجاً لو نجحت فى وصفه كما وقع ، لأغنانى عن تخيل ما كان قد طلب إليّ :

رأيت فى الحلم أنى رجل متزوج !! يا للكارثة ... ومتزوج بمن ؟ ... بسيدة تشغل بوظيفة فى القضاء ... إنها قاضية فى محكمة مصر الابتدائية الأهلية ... وخيل إليّ — فى الرؤيا — أنه قد مضت سنوات وأنا رازح فى قيود هذه الزوجية الطريفة ، راض بما كتب عليّ ، قانع بما قسم لى ... لا أجد غرابة ولا غضاظة فى ذلك اللون من الحياة ... وتلك ولا شك من خدع الأحلام ، فهى تجتاز بنا الأعوام فى شبه طرفة عين ، وتضغط الوقائع الكبار والأحداث الجسام ، وتضعها فى شبه برشامة يجرعها النائم ؛ فيحس نتائج ما حدث كأنه أمر طبيعى عرض له فى الحاضر القريب أو الماضى السحيق .

على أن الأغرب من ذلك أن أجد فى الرؤيا أنى أب لطفلة فى العام الثالث من عمرها ... و ؛ أن أحس نحوها كل عواطف الأبوة ... عجباً ! .

... كيف استطاع الحلم أن يضع في قلبي مشاعر لا أعرفها ولم أحسها
قط ١٩.

كانت الطفلة في ذلك اليوم مع مربيها . وكنت أنا بجوارها ألاعبها ،
وخيل إليّ أني قد جعلتها تمتطي كتفي ، وصرت أركض بها مثل الحصان ،
وهي تضحك تلك الضحكات الصغيرة البريئة ، ثم دقت الساعة
الثانية ... فأحست الطفلة الجوع ، وبدأت تتلجلج ثم قالت :
« ماما » ... فتنبهت إلى أن السيدة حرمتي لم تعد إلى المنزل بعد ... فعليها
إذن أن تتناول الطعام أنا وابنتي وحدنا ... فأنا أيضاً أشعر بجوع ، ولكن
ماذا تصنع زوجتي في المحكمة حتى الآن ؟ ... ألقيت على نفسي هذا
السؤال مرة أو مرتين ... ودفعني الفضول وحب الاستطلاع إلى أن
أتحرى الجواب ... فتركت الطفلة تتغذى مع المربية ، وأسهرت أنا في
سيارة إلى محكمة مصر الأهلية ... سألت عن الست ... فقيل لي إنها في
الجلسة ، فهي منتدبة قاضية للإحالة ، وهي تنظر في إحدى الجنايات الهامة
فدخلت قاعة الجلسة ، وجلست في مقاعد الحضور المحتشدين ،
واندسست بين جموع المشاهدين ، فشاهدت الآتي :

زوجتي المصونة ، والجوهرة المكنونة ، متصدرة القاعة على المنصة ،
متوشحة الوسام الأحمر فوق رداء أسود حقيقة ، لعله يحل رسمياً بالنسبة
لهن محل الردنجات أو « الاسطنبولينه » ، ولكن يظهر أنها حلت بعض
أزراره عمداً ، فكشف من تحته عن ثوبها « الكريب دي شين » الوردي
الذي تقاضتني ثمن تفصيله منذ أيام ... وإذا هو يتسق اتساقاً جميلاً مع لون
الوسام وهلاله ونجومه النحاسية اللامعة ... ولم يكن من اللائق طبعاً أن
يبدو على شعر حضرة القاضية أو على وجهها وشفتيها آثار « التواليت »

بشكل يلفت النظر ، ولكنها مع ذلك لم تنس قط أن تمر مر الكرام على ذلك الوجه بقليل من « البودرة » ، ولا أن تخط بخفة على ذلك الفم خطاً أحمر يستطيع قراءته ذوو الأفهام ؛ فالمرأة هي المرأة دائماً ؛ سواء ألبست النقاب والخلخال ، أو الوسام وخوذة القتال ، وكانت الإجراءات الأولى للقضية قد انتهت بوصولى ، ولم يبق إلا دفاع المحامى ... فقد أبصرت القضية الفاضلة مستغرقة كل الاستغراق فى الإصغاء إلى مرافعته الحارة ، وكان ذلك المحامى شاباً وسيماً من شبان اليوم ... الذين يحسنون تلميع شعورهم وتنعيم وجوههم وتنعيم أصواتهم ...

فوقف متجهاً بكل جوارحه نحو الست زوجته ، وكأنه يضمن حتى بمجرد الالتفات إلى الأنسة « وكيلة النيابة » بوسامها الأخضر الأحمر ، وحركاتها العصبية الممزوجة بالدلع والدلال ... وقد كانت حضرتها على لطف إشارتها ورقة إيماءاتها تعوزها الملاحظة التى تفتن مثل ذلك الشاب .. أما حرماناً ؛ فمن سوء حظى كانت فيما يظهر أجمل من زميلتها قليلاً ، فجذبت إليها وحدها عيون المحامى وعنايته واهتمامه وربما قلبه أيضاً وعقله وباله وبلياله ... وجعل هذا المفتون المأفون يتأمل تارة ، ويرتب بأنامله نظام شعره تارة أخرى ... ويقول :

— يا حضرة الرئيسة ... هذه قضية الحب ... قضية القلب ... هذه القضية المطروحة بين يديك هي قضية متهمه تعسة مسكينة ، لم ترتكب شيئاً غير الإصغاء إلى صوت قلبها .. ومتى كان فى الاستماع إلى نداء القلب جريمة ؟ ... يتهمون موكلتى بأنها قتلت زوجها بالسّم ؛ لتفر مع حبيبها ... هذا صحيح ... وقد اعترفت فى محضر التحقيق ... نعم ... لقد لجأت إلى القتل ... ولكن فلنسأل ... لماذا فعلت ذلك ؟ ... هذه

(حمارى قال لى)

المتهمة خدعها أهلها فزوجوها من رجل أقنعوها بالزواج منه ؛ لأنهم وجدوه القرين الكفء ... وكم من الفتيات يغريهن أهلهن بأن يتزوجن رجلا لا يحببهن ، لماله أو جاهه أو شهرته فيرضين مدفوعات بهذا الإغراء ... ثم تمر الأيام وينطفئ البهرج الخادع ... وإذا الشقاء يحيم كالليل البهيم على قلوب هاته الزوجات التبعسات ... هذا ما حدث لهذه المتهمة ... اقترنت بزوجها المجنى عليه ، وعاشت معه أعواما أنجبت منه خلالها طفلة جميلة ... ولكنها مع ذلك لم تحس لهيب ذلك الحب الجارف العارم ، والغرام المحرق الضارم الذي قرأته في القصص وشاهدته في السينما ... يا للهول ... أسيقدر لها أن تعيش حياتها دون أن تعرف هذا الهناء أو تبصر لونه ؟ ... هذا حقها ... هذا حق كل فتاة ... فلكل فتاة الحق في الحب ... في هذا اللون من الحب ... يجب أن تصادفه ولو مرة في حياتها ... وكان كل ذنب موكلتي ... وكل جريمة لها أنها صادفت أخيراً هذا الحظ ونالت هذا الحق ... كان ذلك في يوم هياه القدر بدقة وحكمة وتدبير ... فقد وجدت ضالتها في صورة شاب جميل ، تبعها يوماً في الطريق من محل شيكورييل إلى منزلها ، وتمكن من معرفة رقم تليفونها ... فوالها بعنايته ، وبثها هواه ولوعته ... وسألها أن تصغى إلى ترانيم الغرام ونداء الهيام ، وتترك منزل الزوجية وتتبعه إلى الفردوس المفقود والنعيم المنشود ... ماذا تصنع هذه الزوجة في هذا الموقف يا سيدتي الرئيسة ... من حسن الحظ أن القاضية لهذه المتهمة امرأة مثلها تستطيع أن تفهمها ... فما من أحد يفهم قلب المرأة العاشقة غير المرأة .

ولم تنطق حضرة الرئيسة ... ولكنها تنهدت ، وأشارت برأسها إشارة معناها أنها فهمت !! ... واستمر المحامي الرشيقي يقول :

— كانت أمام موكلتى عقدة يجب حلها ، وعقبة فى سبيل هئائها يجب تذليلها .. هى زوجها ... إنها كانت تعلم أن هذا الزوج يعبدها عبادة ... وأنه إذا علم بفرارها انتحر لا محالة ... وقتل نفسه أشنع قتلة ... فقد جاهر لها بأنها هى كل شئ فى حياته ، فإذا خرجت من هذه الحياة ؛ فأيسر من ذلك عنده خروج روحه من بدنه ، فما العمل ؟ ... أتركه يضع السكين فى فؤاده ؟ ...

أتدعه يتألم ذلك الألم المادى بمن جراحه ، والمعنوى من خيبة أمله فيها ؟ ... كلا ... إنها زوجة طيبة النفس رقيقة الحاشية ، حية الضمير ... كان يجب عليها أن تؤدى واجبها المقدس نحو زوجها الأمين ... وقد فعلت ... نعم لقد اختارت له — ووقفت فى الاختيار — نوع الموتة الهينة اللينة التى لا تشعره بعذاب ولا ألم .

وتهدج صوت الخامى فى هذه العبارة ، وتوقف عن الكلام خشية أن تخنقه العبرات ، ونظر إلى رئيسة الجلسة المطرقة الساهمة ... فإذا بها — لدهشتى — قد بلغ بها التأثير ... والتفتت إلى وكيله النيابة قائلة فى صوت خافت :

— معاكى منديل يا نبوية ... نسيت منديل فى أودة المداولة .
وانطلق محامى المتهم ماضياً فى مرافقته قبل أن يبرد الموقف فصاح :
— نعم يا حضرة الرئيسة ... لقد قامت موكلتى بواجبها كزوجة أمينة وفية لزوجها ... هذا السم الذى لا يحدث إلا ما قبل الوفاة ، ولا يحس من يتعاطاه شيئاً سوى إغماء بسيط يعقبه نوم هادئ طويل عميق ؛ كأنه نوم الأطفال ...

فقاطعتة القاضية الكريمة سائلة :

— ٨٤ —

— من فضلك السيم ده اسمه إيه ...! —
 فلم أطق صبراً ، ولم أستطع احتمالاً ولا انتظاراً لنهاية القضية ولا لشيء
 آخر بعد ذلك ... فنهضت مرتاعاً من مقعدى ، وخرجت من قاعة
 الجلسة وأنا أقول :

— قسماً بالله العظيم ما أتغدى فى بيتنا بعد اليوم ...
 وأعمانى الذعر ، فعثرت قدمى بعتبة باب الجلسة فهويت على
 الأرض ، وعندئذ فتحت عيني ؛ فإذا أنا متدحرج من السرير على أرض
 الحجرة ... فقممت أفرك أجفانى وأقول :
 « الحمد لله أنى سليم معافى ولم أتزوج قط ... ولن أتزوج أبداً ...
 حتى إذا اختارنى ربى إلى جواره وأدخلنى الجنة ، فسوف أطلب إليه أن
 يكون بينى وبين الحور سور » ...!

حمارى وحزب النساء

قال لى حمارى وهو يلوح بعينه فى إحدى الصحف خبر تأليف حزب نسائى ...
 — ما رأيك فى الحزب النسائى ؟ ... طبعاً لا بد أن يكون لك فيه رأى ... أليس كذلك ؟ ...
 فأجبت قائلاً :

— أمن الطبيعى فى نظرك أن يكون لى فيه رأى ؟ ... لا بأس ليكن الأمر كذلك ، وأظنه طبيعياً أيضاً أن يكون هذا الرأى فى جانب حزب النساء ... ولم لا ؟ ... إلى رجل مظلوم ... ولسوف يؤلف عنى كتاب بعد موتى : « توفيق المفترى عليه » ... الواقع أنى دائماً أتمنى للمرأة تقدماً ... ولا أختلف معها إلا فى معنى كلمة « التقدم » فهى تفهمها على أنها الجرى فى إثر الرجل واللاحق به ... وأباً على العكس : أرى الرجل هو الذى يجرى وراء المرأة ... فالمسألة فيما يظهر لا تعدو مجرد خلاف فى الرؤية والنظر ... وحتى الآن لم يفتح الله على الجنس البشرى بواحد ذى عينين سليمتين ، ليبصر لنا أيهما هو الذى يسير خلف الآخر ؟ ...
 ولأسلم على كل حال بنظرية المرأة إثباتاً لحسن نيتى ... ولنقل إن الرجل هو المتقدم ، وإنها هى المتخلفة ... وتفانياً منى فى إرضائها أقول :
 إن هذا التخلف يبدأ منذ نصف مليون سنة ، أى من عصر الكهوف ، يوم

كان الإنسان الأول يعيش حياة الصيد في الغابات تاركا أنثاه في كهفها تعنى بصغارها وتبنيء مما صاد لها ولأطفاله طعامهم وطعامها ... لقد كان هذا التوزيع في العمل بأمر من الطبيعة التي زودت الرجل بعضلات قوية للكفاح خارج الكهف ، وحبث الأنثى بالوداعة والرحمة والحنان اللازم للأومة داخل العش ...

ومرت آلاف الأعوام ، وهذا التقسيم في أعمال الجنسين قائم — وإن كان الصيد قد تغير — حتى اتخذ اليوم ألواناً جديدة مثل المال والجاه ، والمنصب ، والنفوذ ... إلخ . وتبدلت كذلك الأسلحة ، فذهبت القوس والنشاب ، وحل محلها سلاح آخر معنوى اجتماعى ذهنى تصاد به كل تلك الأغراض ، مما اصططلحنا على تسميته بـ « العلم والخبرة ، والقدرة ، والسياسة » إلخ ... كذلك تغير كهف المرأة فأصبح « شقة » نظيفة أو « فيلا » مريحة ، تخطر فيها بأثوابها الأنيقة وزينتها البديعة ، وتعنى بتنشئة أولادها على قواعد الصحة الجثمانية والخلقية ...

لم تستطع إذن خمسمائة ألف من الأعوام أن تحدث من التغيير في أوضاع الجنسين أكثر من ذلك ... ولقد لبث لكل منهما عالمه المنفصل ، ومجال نشاطه المستقل طوال هذا القدر الهائل من الأحقاب ... الرجل له الخارج ، والمرأة لها الداخل ... وأظن أن نصف مليون سنة مدة كافية لأن تكيف طبيعة الإنسان ، فإذا راق للمرأة اليوم أن تغير طبيعتها ، وحلا في عينها أن تعمل ما يعملها الرجل ، فتشتغل بأعمال الخارج ، وتخوض بنفسها غمار الكفاح في ميادين السياسة والجاه والسلطان ، فذلك موكول إليها ... وكلنا نرحب به ؛ بل إني أناشدها أن تسرع منذ الآن ... ولتبدأ من البداية في الحال ، حتى لا تضيع وقتاً على من سوف

يأتى فى المستقبل من أجيال .

والاقتراح العمل لتحقيق ذلك ، هو أن نبادر من فورنا فنرسل
حضرات سيدات الحزب النسائى إلى مجتمع فطرى ، يشابه مجتمع الإنسان
الأول ... وأظننا نجد مثل هذا المجتمع الآن فى غابات أواسط أفريقيا ...
هناك تترك البعثة الكريمة لتضع أساس الحياة المنشودة ... وعليها أن تعيد
توزيع العمل من جديد على الوضع العكسى ، فتتولى هى القيام بأعمال
الصيد فى الغابات ... وتدع للرجل العمل داخل الكهوف ... ولنتنظر
نصف مليون سنة أخرى ، وهذا ليس بكثير ، حتى تتوالد أجيال جديدة
من النساء المكافحات يرفعن رؤوس أجدادهن ، ويسطرن بمداد الفخار
مبادئ الحزب النسائى الموقر ...!

على أنى أخشى أن يرى الحزب النسائى أن اقتراحى هذا غير عملى ...
فمن الواجب إذن أن نفكر فى حل آخر :
قد تقول لى بعض النساء المحترمات :

— لماذا لا نجرب ونسمح ظن منذ الآن بمقاعد فى البرلمان ؟ ... أنا
شخصياً لا أرى مانعاً من إعطاء المرأة حق التمثيل السياسى فى مجلس النواب
« بالطبع جميع النساء متنازلات مقدماً عن حقهن فى مجلس الشيوخ » ،
وزيادة فى تسهيل الأمر على إخواننا المحافظين المتعنتين من الرجال أقترح
الأخذ بمبدأ أن « للذكر مثل حظ الأنثيين » ، فيكون لكل امرأتين صوت
واحد ... : وأرجو من السيدات أن يتساهلن فيقبلن هذا الشرط مؤقتاً
لإرضاء لغرور الرجال ... وإنى على أتم استعداد لمعاونة المرأة والمطالبة معها
بهذا الحق على هذا الأساس ... إلا إذا اعترض حزبهن الموقر بأن هذا رأى

أيضاً غير عملي ، بحجة أن اشتراط صوت لكل امرأتين يتطلب وجود امرأتين في البرلمان يمكن أن تتفقا على رأى واحد ، وهذا بعيد الاحتمال .
 مهما يكن من أمر ، فإننى راغب من كل قلبى فى منح المرأة حقوقاً سياسية مساوية لحقوق الرجل ... وأرجو أن أعيش حتى أرى اليوم الذى تتبوأ فيه نساؤنا مقاعدهن تحت القبة .
 وهنا فليسمح لى بسؤال :

هل ستكون لمن مقاعد خاصة باعتبارهن حزباً منفصلاً قائماً بذاته ، أو أنهن سيدخلن على مبادئ أحزاب الرجال المعروفة ، ويمتزجن بها ، كل واحدة ضمن الحزب الذى يرشحها ؟ ...

إذا كان الأمر الأول ؛ فلا شك أن حزبهن المستقل سوف يكون فى الشؤون النسوية صاحب الكلمة التى لا تعصى ولا ترد فإذا اقترح الحزب النسائى مثلاً إعفاء « البودرة » و « الروج » و « الجوارب » من كل ضريبة جمركية أو تجارية ، فإن هذا الإعفاء نافذ بدون كلام ، والرجل الذى يجرؤ على المعارضة يكون مستعداً لنكد الدنيا يهبط على أم رأسه ، لا فى البرلمان وحده ؛ بل فى بيته من زوجته أو أخته أو ابنته ...
 أما إذا كان الأمر الثانى ، فإننى لا أرى فائدة كبرى تعود على المرأة منه ... وأخشى مخلصاً أن تطويهن مطامع الأحزاب الأخرى فلا ينتفعن لأنفسهن بشيء .

لى بعد ذلك ملاحظة شكلية يجب أن توضع موضع الاعتبار :
 لقد عاب أحد الشيوخ المحترمين على النساء الموظفات حرصهن على زينتهن ... وأنا لست من رأيه ... إذ ما دمنا قد سلمنا للمرأة بحقوقها فى

الوظائف العامة ، فلا بد لنا من السماح لها باستعمال حقها الطبيعي في « الأحمر والأبيض » ... وما أحسب أحداً من زملائها في البرلمان يثير هذا الاعتراض يوم تتخذ مكانها فيه ... فإن الوجه النظيف والتزين اللطيف من أبلغ حجج المرأة ... وليس من الإنصاف أن نحرّمها سلاحاً من أسلحة بلاغتها الماثورة في ساحة يتذرّع فيها كل عضو بكل أدوات الفصاحة والإقناع ...

* * *

وأخيراً ، يا حمارى العزيز فأني ألخص لك رأيي في كلمة واحدة هي : موافقتي التامة على وجود المرأة في البرلمان وفي كل مكان إلى جانب الرجل ؛ لأن مجرد وجودها يحدث نشاطاً في الهمم وتألقاً في الأفكار ... لقد قلت ذات مرة : « إن المرأة مثل القمر ... » أقصد بمعناه الفلكي لا الشعري « فهي لا تشع ضوءاً من داخل نفسها ، بل تعكس الضوء الآتي ، إليها من شمس عقل الرجل ... هي كالقمر « كائن سلبى » ، وسطح معتم في ذاته ، لا تسطع إلا بما ينعكس على قلبها ورأسها من تفكير الرجل وإحساسه ... فدئوها منه في مجال العمل المنتج ، له من الفائدة ما يعادل فائدة المرأة إلى جانب المصباح ... إنها تضاعف نوره ، وتزيد إشعاعه ... أما أن تنتظر منها أكثر من ذلك فهو انتظار للمستحيل ... لن يكون للنساء في مجالسنا النيابية والاجتماعية أكثر مما للمرأى بجوار المصابيح في القاعات والصالات ... ولقد بلغنا ولا شك في الحضارة حداً يقتضى أن نزين جدراننا بالبللور ... !!

حمارى وعداوة المرأة

قال لى حمارى ذات يوم :

— لماذا انفردت بين الأدباء باحتقار المرأة ؟ ...

— ومن قال لك إني انفردت ؟ ... هنالك العقاد ...

— وهل يكره العقاد المرأة حقاً أو يحتقرها ؟ ...

— هذا سؤال يحسن أن تلقيه عليه ... أما أنا فأتحيل أنه سيجيبك صائحاً هذه الإجابة الوافية الشافية :

— « أنا أكره المرأة » ! ... من يقول ذلك عنى ؟ ... حبنى للمرأة أمر مقطوع به ، ولم يكن يوماً موضع شك أو جدال ... فأنا رجل طاهر السريرة ، واضح النهج ، حياتى صريحة ... لم يسبغ عليها قط رداء الغموض ... مودتى أمنحها أمام الملأ ، وعداوتى أعلنها على رءوس الأشهاد ... فمنذا يستطيع أن يزعم أنى وقفت تجاه المرأة موقفاً ينم عن زراية أو بغضاء ؟ ... أين بدا ذلك منى ؟ ... هاأنذا ألقى بقفاز التحدى ...

ومع ذلك أصغى أحياناً إلى همسات تتصاعد من قرارة نفسى أرجو أن لا يكون لها صدى يبلغ آذان النساء ، همسات تنبئنى بأن المرأة كانت فى نظرى ، وتكون شيئاً لا يستحق غير الامتهان :

زرقة عينيك لا صفاء فيها ، ولـكنها فضاء (*)
 حمرة خديك لا حياء فيها ، ولكنـه اشتها
 وجهك سبحان من جللاه ولو ث النفس بالطلاء
 قلت ذلك حقاً في المرأة ، ولست أدري كيف أنشدته وسطرته
 ونشرته دون أن أثير خصومة ذلك الجنس الخطر ... السبب في ذلك
 بسيط : إلى أعمال المرأة كما ينبغي أن تعامل : لا بالعقل الرشيد ، ولا
 بالمنطق السديد ، أنا الذي حذق التحليل المنطقي وبرع في التليل العقلي ،
 ووضع كل شيء تحت مصباح الطريقة الذهنية ، وأخضع كل بحث إلى
 الأسلوب الفكري ، رأيت أن أشد عن هذه القاعدة في علاقتي بالمرأة ...
 لم أخاطبها قط يوماً بخبر لغتها .. لذلك فهمتني ، ولم تثر في وجهي ...
 إلى لم أصنع للمرأة تمثالاً مموهاً بالقداسة الزائفة ، ولم أرد لها كما يريد لها خيال
 أولئك الشعراء الذين يركبون إليها القوارب الثملة ، ويمخرون نحوها البحار
 البعيدة ، ويبحثون عنها في الشواطئ المجهولة ، وهي منهم على قيد
 خطوة ... جالسة تنتظر ، وتكاد أقدامهم تتعثر فيها وهم لا يبصرون ...
 كلا ... إلى أبصرها ... وأراها دائماً كما هي ... وكما خلقها بارئها :
 فأكهة شهية غضة ينخر فيها الدود ... فلتنفض عنها دودها ، ونحن نخفي
 اشتمزازنا ، ولنطبق عليها بأنيابنا ، ونلتهمها بأفواهنا ، ثم نطرحها جلدة
 رثة ، وقشرة بالية ... هكذا أراد لها القدر ... فلماذا نريدها نحن على غير

(*) الاستشهادات الشعرية : لها من ديوان أعاصير مغرب للأستاذ عباس محمود
 العقاد .

ذلك :

أنت المعلوم إذا أردت لها ما لم يردده قضاء باريتها
تلك نظرتي إلى المرأة ... لم أوصد دونها بأى يوماً ... ولم أشح عنها
بوجهي ... لقد فتحت باب حياتي على مصراعيه لكل امرأة تدخل بسلام
آمنة ... كل النساء على السواء : ممن أطلق عليهن اسم الفاضلات ، وممن
حسبن في غيرهن ... ومن أنصاف أولئك وهؤلاء ...! لكن نوع المعاملة
قلما يتغير ... قد أغير وأبدل أحياناً في أسلوب وأردية الكلام ومقتضيات
المقام ... فتلك التي يقال إنها مثقفة أحيطها بجو فكري ينشط خيالها ، ولا
يثقل على طبيعتها ... ذلك أن طبيعة الأنثى في المرأة لها دائماً المكان
الأولى ؛ فلنلزم معها الحيلة ، ولنتجنب الإملال والإثقال ... فما من
امرأة تطيق حمل رفيع الأفكار أكثر من قدر بسيط معلوم ، يحسن أن تتخلله
فترة مداعبات عاطفية ، وتفاهات أو محادثات سطحية .. أذكر ذات يوم
أن زارتني امرأتان من طراز أولئك المثقفات ؛ فلبثنا نتحدث ساعة في بعض
الشؤون الثقافية ، وشغلني شاغل فانصرفت عنهما طرفة عين ، فما عدت
إليهما حتى وجدتهما تتحدثان في أنواع أصابع « الروح » وأصناف طلاء
الوجه والشفاه ... آه ... لو أنهن — على الأقل — كن يطينن بالثقافة
الحقيقية أزواجهن بالمقدار الذي يطينن به شفاههن ...!

إلى لا أقول لمن هذا الكلام ... ولكني أعمل أحياناً ما هو أقسى من
القول : إلى لا أحجم عن إشعار المرأة وهي أمامي بأنها مخلوق تافه حقاً ...
ومع ذلك ... يا للعجب العجيب ...! إن المرأة تنور للكلام ولا تنور
للفعال ... إنها تغضب لكلمة تسمعها ، ولا تغضب لصفحة على
وجنتها ...! وماذا أريد أنا أكثر من إذلالها بغير إثارتها ...! إلى رجل

يعرف الحب ... وقد أحبت على الطريقة التي تروق للمرأة ... أى ذلك اللون من الحب المزوج بالتقدير والتحقير ؛ فالإهانة أو الزاوية هى الملح الذى يجب أن يوضع فى الحب ليكون له المذاق الذى تسيغه المرأة :

بعض الزاوية نافس فى حين فلا تغال
هكذا ظفرت بالمرأة ؛ لأنى عرفت سرها ... مفتاح سرها دائماً فى
يدى ؛ ألوح لها به عند كل لقاء ... فإذا هى تبسم صاغرة وتفتح لى
مغاليقها من تلقاء نفسها ... إن المرأة ليست مغلقة إلا لذلك الذى أضاع
مفتاحها ... قد يسألنى سائل : ما هو هذا السر ؟ ...

فأجيب من فورى : هو الخداع ...

لا ترع من هذه الكلمة ... هى عندنا نحن الرجال نقيصة ، وهى
عندهن غريزة ... منذ فجر التواريخ والمرأة تتزين : أى تخدع ... لقد
عرف الطلاء على وجه المرأة قبل أن يعرف على جذران الهياكل ... وطلاء
الجسم ملازم لطلاء النفس ؛ بل إن النفس هى المنبع ... فهى تنزوعها إلى
الكذب والتمويه تتخذ الجسم لها مطية ... ما من امرأة صدقت فتشجعت
وبرزت سافرة للرجل كى يعرف وجهها الحقيقى ...

منذ آلاف الأعوام والمرأة تنفس من إحدى رئتيها بالهواء ، ومن الرئة
الأخرى بالرياء ... بل إن الرياء والخداع هما الأكسجين والهيدروجين فى
هواء كل امرأة ... ولقد اتخذ الخداع على مر الأجيال ألواناً تحاكي ألوان
أثوابها ، فهو تارة برىء الغرض كل مهمته أن يبهى البصر ... وهو تارة
رداء ضرورى يستر عورة ، وهو فى كل الأجيال سليقة تنطلق بلا غاية ولا
هدف ... لذلك ما فكرت يوماً فى لوم امرأة لأنها خدعت إنما كنت ألقاها
قائلاً :

نَحْلُ الملام فليس يشبهها حب الخداع طيعة فيها
وكانت هي تلقاني وعلى فمى ابتسامة الفاهم شأنها ، المتوقع لكل خيانة
منها ... فما تبدو منها بادرة حتى أعاجلها بقولى :

خنها ولا تخلص لها أبداً تخلص إلى أغلى غـوالها
نعم ... المرأة لا تذكر كلمة « الإخلاص » إلا إذا ذكرت أنت كلمة
« الخيانة » . أما إذا رفعت عقيرتك لتتغنى بالإخلاص ، فإن دوى أغانيك
وترانيم أناشيدك ، وإن بلغت السماء ، فإنها لا تبلغ أذنيها ... وإن هي
سمعت الكلمة ، فثق أنها نسيت المعنى ... تلك هي المرأة التى تلفت
درسها الأول من الحية ، ودرسها الثانى من الشيطان .

قلت لك إلى أعرف الحب كما يحلو للمرأة ، لا كما يحلو لأصحاب
الخيال ... فاسمع منى النصيح أيها الرجل :
إذا أحببت امرأة فاصنع ما أقول لك :
لن أقول لك اليوم بالطبع ما كان يقال قديماً :

« إذا دخلت على المرأة فلا تنس أن تخفى فى تلايبك سوطاً »
كلا ... فإن امرأة هذا العصر لا يرعها السوط ولكنى أقول لك : إذا
لقيت حبيبتك فأنشدها :

حبك لا نعمة أراها	فيه ، ولكن به جزاء
يا جنة حسنها عقاب	يا خمرة عذبتها عذاب
متى متى ينطوى الكتاب ؟	متى فراق بلا لقاء ١٩

حمارى والمحكمة

قال لى حمارى ونحن نتذاكر الماضى يوماً :
 — إنك قد اعتزلت خدمة الحكومة ، ولا ريب أنك تذكر فيها مواقف لك ، لا يمكن أن تحدث لغيرك !...
 فقلت وأنا شاخص ببصرى إلى الفضاء :
 حقاً ... اليوم وقد أصبحت بحمد الله من أرباب المعاشات ، فلا جناح على من ذكر طرف مما كان يقع لى أحياناً أثناء خدمتى فى وظائف الحكومة ... ولأتخير لك عهد اشتغالى فى سلك القضاء ؛ فما زالت فيه حوادث يذكرنى بها من آن لآن بعض الزملاء السابقين .. ومن ذلك تلك الحادثة التى أروىها لك ، فقد وضعتنى موضع الحرج لحظة من اللحظات : كنت فى كرسى النيابة العمومية ذات صباح متشحاً بوسامى الأحمر الأخضر ، وكان أمامى « الرول » ؛ ذلك الدفتر الطويل الذى تدون فيه أرقام القضايا وأسماء المتهمين ، والشهود ، وملخص وصف التهمة ، ومواد القانون ... إلخ .. وبين أصابعى ذلك القلم الذى يجب أن أدون به الحكم الذى ينطق به القاضى فى كل قضية ؛ ولكن الحق يقال : ما من مرة دونت فيها الأحكام كاملة فى ذلك « الرول » ، فقد كان سكرتير المحكمة « الله يستره » هو الذى يسد هذه الخانة بقلمه — تلطفاً منه وكرماً — لثقتة بأنه من غير المعقول أن أكون قد تتبعته كل القضايا بيقظة وانتباه ... على

أن من المبالغة أن أزعج أنى كنت أشرد عن كل ما يجرى حولى طوال الوقت ... هنالك قضايا وتفاصيل ودقائق كنت أوجه إليها التفانى ... لعلى كنت أعرف بالغريزة ما ينفعنى كروائى مما لا نفع لى فيه ... إنى ما كنت أطيق ثرثرة المحامين ... فالقضية التى فيها مراعاة طويلة معناها عندى « غياب ذهن » طويل ... وربما حوار قصير بين شخصيتين تافهتين — فى نظر المحكمة — يثير فى نفسى كل تأمل وتفكير . لقد سمعت فى ذلك اليوم الذى أتحدث عنه هذه المناقشة بين القاضى وخفير نظامى تعدت عليه امرأة بالفاظ جارحة :

القاضى : ماذا حصل يا خفير ؟ ...

الخفير : أنا واقف فى دركى جهة نقطة الملموسات « يقصد المومسات » ضربت بعينى لقيت الحرمة المتهمة خارجة من بيتها حاطة ...

القاضى : حاطة إيه ؟ ...

الخفير : حاطة من غير مؤاخذه أحمر وأبيض ، ومتخططة ، وفى جليها الخلاجيل ولايسة شبشب زحافى ، وواقعة بين الجدعان فى وسط الشارع ، فى حالة هزار وضحك وصهاليل بشكل يخالف للحشمة والكمال ...

القاضى : وكيف تعدت عليك المتهمة أثناء تأدية وظيفتك ؟

الخفير : قلت لها عيب يا ملموسة ... ادخلى بيتك ... فما كان منها إلا أنها زغرت لى من فوق لتحت ، وتقصعت وقالت : « اخرس يا غفير يا مصدى ... قطع لسانك ... دا انا لما انفضى شبشبى الصبح ينزل منه عشرين غفير زيك » ...

فظهر الاستنكار على وجه القاضى ؛ وظهر الإعجاب على وجهى ...
إن هذه المرأة فى نظره قد فاهت بأقصى ألفاظ التعدى ... وهى فى نظرى
قد جاءت بأخصب صور الخيال الفنى ... فما أظن هنالك أبلغ من هذه
الصورة فى تحقير خفيّ ... لو استطاع ذهن هذه المرأة أن يبدع صوراً
أخرى فى التجميل والثناء كما فعلت فى التقييح والهجاء ؛ لكانت شاعرة .
ونظرت إليها وهى فى قفص الاتهام ؛ فإذا هى هادئة ساكنة ، ويدها على
خدها ، ترمقنا بنظرات فائرة ، وعلى شفيتها ابتسامة ؛ لعلها ساخرة ...
إنها معترفة ... ولماذا ينكر شاعر قصيدة هجائه ؟ ... لقد روحت عن
نفسها بما قالت ، وكفى ... ماذا يهم الثمن بعد ذلك ؟ .

ترى ماذا فى حياة هذه الساقطة ؟ ... لا أقصد حياتها الظاهرة التى
يعرفها الخفير ورجال الضبط ، وزوارها وزبائنها ؛ إنما أقصد تلك الحياة
الخفية فى قرارة نفسها ... هنالك ولا شك أشياء كثيرة رأتها وأحسستها ،
ولا تكلف نفسها مشقة التعبير عنها ... ولو أنها أرادت أو استطاعت
لجاءت بأعاجيب ، ذلك أنها ستصف الأشياء بطريقتها وهى ولغتها وهى ...
وبالها من طريقة ولغة ... لو استطعت أن أجلس إليها وأتلقى عنها ؟ ...
ليس أكذب من الروائى الذى يفكر لأشخاصه بعقله هو ... ويتكلم عنهم
بلغته هو ... هذه المرأة مادة قيمة لى ، ولكن ... أنسيت ألى أمثل
الاتهام ؟ ... نحن فى الحياة قطبان لا يلتقيان ... وإن التقينا فحول القفص ؛
لألى أبا العقاب ، وهى الجريمة ... أنا السيف وهى الذبيحة ... لا يمكن
أن نلتقى للتفاهم أبداً ... لا تفاهم إلا إذا طرحت عنى وسامى الذى
يكبلنى وانطلقت حراً أغترف من أعماق تلك الشخصيات كما يغترف
المثال من الطين الذى يصنع به فناً ...

(حمادى قال لى)

ومضت إلى الخواطر في هذا السبيل ، وغمرتني فلم أدر حتى بالزمن الذي مر بي ... ولم أفطن إلى ما جرى حولى ، ولا إلى ما نظرت المحكمة من قضايا ... ولم أتنبه إلا على صوت باب حجرة المدافلة يفتح فجأة ، وقد ظهر الحاجب في حركة اهتمام سريعة وهو يحمل كرسيًا وضعه إلى جوارى ، وهمس في أذنى بقوة :

— سعادة البك مفتش عموم النيابة ١...!

وقبل أن أفيق إلى نفسى دخل المفتش بسرعة ، وجلس إلى جوارى ، وحيانى بصوت خافت ... ثم أراد أن يعرف رأى فى القضية المعروضة ، فاصفر وجهى ... أى قضية ؟ ... والتفت أنظر إلى ما يدور حولى فى الجلسة يعيون زائغة شاردة فأبصرت أحد المحامين الفطاحل يرغبى ويزبد ويضرب بقبضته فى الهواء ويصيح :

— هذا كلام فارغ ... النيابة أخطأت فى تكييف وصف التهمة ... لو أن النيابة فهمت الوقائع المنسوبة إلى موكلى على حقيقتها لما قدم إليكم يا حضرة القاضى هذا المتهم مكبلا بكل هذه النصوص ١...!

فمال مفتش النيابة يسألنى عن المواد المطبقة على هذا المتهم فلم أدر ماذا أقول ولا ماذا أصنع ... وأنا لا أعرف فى أى قضية يتكلمون فى الجلسة ويتناقشون ... وشاء سوء حظى أن يكون المحامى سفيه اللسان ؛ فأمعن فى الصباح قائلا :

— هل هذه نصوص تطبق فى حالة موكلى ؟ ... هذا تخطيط من النيابة ... هذه فوضى ... هذا سمك لبن تمر هندى ...

فاهتز مفتش النيابة فى كرسيه وانتفخت أوداجه ... وهمس فى أذنى بشدة :

— النيابة أهينت ... قم دافع عن كرامة النيابة ! ...
فقلت مداراة للمسألة :

— كرامة النيابة في الحفظ والصون ...

— كيف ذلك ؟ ... ألا ترى النيابة متهمة بالخطأ والخلط
والفوضى ؟ ... المحامى يقول : إن النيابة سمك لبن تمر هندى ...
فقلت له : أنا لم أسمع غير كلمة تمر هندى فقط ...
فصاح صبيحة كاد يسمعها القاضى والحضور :

— لا ... لا يا توفيق بك ... هذه إهانة موجهة إلى النيابة ... يجب
على الجالس في كرسيها أن ينهض لدفعها ... قم ... قم ... وسجل
احتجاجك ... وابسط وجهة نظرك في تطبيق نصوص القانون ...
فقلت في نفسى :

لو أنى كنت أعرف فقط نوع القضية ... ولكن الموقف ساء من كل
ناحية ؛ فكان الدفاع بعيداً كل البعد عن ذكر ما يُشتم منه رائحة التهمة ،
مكتفياً بالتهويل والتهويل والطعن في تصرفات النيابة والبوليس ...
وكلما أمعن في ذلك هاج مفتش النيابة وماج ، وانهاى على كمى يكاد
يمزقه وهو يطلب منى القيام والكلام ... وأنا متشبث بمقعدى ، مصمم
على القعود والسكوت ... وأصبح منظرنا — لمن يفهم موقفنا — يُبكى
ويضحك ... وقد فطن القاضى إلى الأمر كله ، وأدرك الورطة التى أنا
فيها ، وهو يعرف عاداتى جيداً ، ويحترم شرود ذهنى دائماً ... فابتسم
ابتسامة فهمتها .. فتشجعت ، وقمت أقول بقوة وحماسة :

— النيابة تحتج على الألفاظ التى صدرت من حضرة المحامى .
فقال القاضى :

— ١٠٠ —

— المحكمة ترجو النيابة أن تفسح صدرها وتسمح للدفاع بكامل
حريته ، وهو لم يقصد قط في أى لحظة أن يمس كرامة النيابة العمومية من
قريب أو بعيد ...

وصادق المحامي على قول المحكمة بعبارة مجاملة ، وجلست في مقعدى
أتنفس الصعداء وأقول لمفتش النيابة :
— ها أنذا قد رفعت لكم رأس النيابة ! ...

ومرت الأعوام ، وانتهى حضرة المفتش إلى أرق المناصب القضائية في
البلاد ... فكنا كلما تقابلنا وتذاكرنا الماضى ضحك لموقفى ذاك
طويلا ... ولكنه ظل برغم ذلك من المعتقدين بأنى كنت — مع كل
عيوبى — من خيرة رجال النيابة ... عافاه الله ...

حمارى والجريمة

قال لى حمارى يوماً :

« لا شك أن الكاتب الخالق يجد نفسه أحياناً فى حاجة إلى ترك عزله
الذهنية والهبوط إلى طبقات الناس المختلفة ، يدرس أحوالهم ، ويجمع ما
ينفعه مادة لفنه ... من أجل ذلك يتحتم عليه معايشة أصناف متباينة من
البشر ... ويستوى عنده الجلوس إلى العظماء والأثرياء ، أو اللصوص
والأشقياء ، ولا يفرق فى الاختلاط بين الأجلاء والسفهاء ، ولا بين
الفاضلات والساقطات ، الجميع فى نظره نماذج من أشخاص تلك الرواية
الكبرى التى تجرى حوادثها كل يوم على مسرح المجتمع ... وهل يستطيع
المؤلف الروائى أن يميز فى تقديره وعنايته — وهو يصور أبطاله — بين
شخصية « الرفيع » وشخصية « الوضع » ؟ ... كلاهما فى عرفه وعمله
يحتاج إلى عين الدراسة وعين الالتفات ... لذلك يحسن بالروائى الخالق أن
يصاحب ويخالط كل المخلوقات على السواء ، وأن يراقب ويدرس كل المهن
والحرف والطبائع والغرائز ... فقلت له :

— رأيك هذا صحيح يا حمارى العزيز ... ولقد قرأت من أخبار
الروائيين فى هذا الشأن ما يثير الدهشة والعجب ... من ذلك أن كاتباً
مشهوراً اتخذ صديقاً له ذلك اللص الأمريكى المشهور « آل كابونى »
وهى ولا ريب صداقة مفهومة المعنى والغرض ، فقد كانت نتيجةها المحتومة

ظهور كتاب طريف عن هذه الشخصية الخيفة العجيبة ، يحوى أصدق الوصف لبيئة كان يجب أن تدرس وتصور وتبرز لمصلحة الفن ومنفعة القضاء ... ولكن يا صديقي الحمار ؛ فلنفرض جدلاً أنى أردت أنا أيضاً إخراج كتاب ، لا على نسق كتابى « يوميات نائب فى الأرياف » ولكن على نسق ذلك الكتاب الأمريكى أسميه مثلاً « يوميات لص فى القاهرة » أدرس فيه عصاة لصوص بكل ما يحيط بها من بيئة وظروف ... واخترت لتلك الدراسة — لا طبقة اللصوص الأرستقراطيين الذين لا يقرهم القانون ؛ فأنت فى كنف هؤلاء بمأمن ... ولكن اخترت — أولئك الذين يطاردهم البوليس فى كل مكان ... أردت أن أصور هؤلاء الخطيرين الخارجين على المجتمع وقوانينه ؛ فاتصلت بهم وجلست إليهم ، وسمعت ما يدور بينهم من مؤامرات ، وعلمت أنهم مقبلون على ارتكاب جريمة سطو على بنك من البنوك فى ليلة من الليالى ... واطمأن إلى هؤلاء القوم ، وأمنوا جانبي ووثقوا « بشرى » فوضعوا أمامى الخطة ... إلى هنا لا جناح على مثلى فى نظر القضاء ؛ فليس كل ذلك بعد سوى أعمال تحضيرية غير معاقب عليها ... ولكن ليلة السطو جاءت ... فتددت : هل أذهب معهم أو لا أذهب ؟ ... إذا أنا لم أذهب فقد خسرت دراستى ؛ فالفائدة كل الفائدة من حيث الفن الروائى هى فى حضور واقعة السطو نفسها ... كما أن قيمة الشريط السينمائى لجريدة الحرب المصورة هى فى النقاط وقائع الميدان بذاتها ... لا بد من الذهاب معهم إذن ولو تعرضت للخطر ... وقد ذهبت مدفوعاً بوسواس شيطان الفن ... وهنا المصيبة ... فقد هجم اللصوص هجمتهم على باب المصرف ... فتنبه الحارس وتعرض لهم ... فانبرى له أحد أفراد العصاة ، أعرفه بشخصه ، ورأيتُه رأى العين ، وقد

طعن الحارس المسكين بمذبة طعنة أردته قتيلا ، وأتم اللصوص عملهم ،
وانتهبوا الخزانة وانصرفوا ، وانصرفنا ... يا للكارثة !... إنها جريمة سرقة
بأكراه ، اقترنت بقتل عمد ... إنه الإعدام ... إنها المشنقة لا أكثر ولا
أقل ... ما مركزي في كل هذا ... أنا في نظر القانون شريك من غير
جدال ؛ فقد لازمت العصابة في كل أدوار الجريمة : من أعمال التحضير
إلى أعمال التنفيذ ... من أول التصميم الجنائي إلى القتل واستلاب الخزانة
في أمان الله ... انصرفت إلى شأني أفكر في الأمر ... وانصرف زملائي
بالغنيمة يقتسمون النقود ... وجاء الغد ، وإذا الصحف كلها تنشر
بالحروف الطويلة العريضة : « جريمة مروعة فظيعة ! »....

وجد رجال الشرطة في البحث ، وانهمك رجال النيابة في التحقيق ،
ووالد الصحف ملء الأعمدة بأخبار الحادثة وتصوير ظروفها ...
وجاءوا بالكلب « هول » ، وأخذت البصمات ، وأجريت المعاينات ،
وألقي القبض على كل من حامت حوله الشبهات ... كل ذلك كنت
أطالع في حجري باسم هادئ . كأني أطلع قصة بوليسية خيالية ؛ بل إلى
كنت أتتبع كل ذلك ضاحكا أحيانا للفروق الكبيرة بين ما حدث بالفعل ،
وما تصور المحققون أنه وقع ... إنها لذة فنية أحسستها لأنها لأول مرة وأنا
أرى الواقعة الواحدة من وجهين : الوجه الحقيقي الذي لا يعرفه غيري
وأفراد العصابة ، والوجه الآخر الذي ينشر على الناس في الصحف ...
هنا ينكشف الستار أمامي على لعب الخيلة البشرية وعملها في تكيف
الحقائق ... وهنا أتمتع متعة طارح الأحجية أو « الحذورة » المالك
مفتاحها ، وهو يستمع إلى تخبطات وتكهنات الآخرين ... فأمتحن ذكاء
الطبيب الشرعي ، وحذق البوليس السري ، وفطنة القائمين

بالتحريات ... ولقد ابتسمت عندما قرأت أنهم قبضوا على شقيق زوجة الحارس القتل ، لحدوث مشاحنة بينهما في الليلة السابقة على الجريمة ، بخصوص سلوك الزوجة المريب ... ومرت الأيام وزج في السجن بكثير من الأبرياء رهن التحقيق ، ثم خفت صوت الحادث رويداً رويداً ، فلم تعد الصحف تعنى به ... وأشارت صحيفة آخر الأمر بأن التحقيق كاد يغلق ، وأن القرائن كلها متجهة نحو شقيق الزوجة ، وأن التهمة قد وجهت إليه ؛ لأن صحيفة سوابقه بها جرائم مماثلة ... ولأنه متصل بالحارس فهو أقرب الناس إلى العلم بمسالك البنك وأسراره ... ولقرائن أخرى من هذا القبيل اجتمعت كلها وانضبت على رأس هذا المتهم البريء .

* * *

هنا تيقظ ضميرى الإنسانى ... وجعل يهتف بى أن من واجبى التبليغ فى الحال ، وكشف النقاب للبوليس عن حقيقة الأمر ... فنهض ضميرى الفنى معارضاً مؤكداً أن واجب الفنان هو السكوت ... واحتدم الجدل بين الضميرين ، فى الحوار الآتى :

الضمير الإنسانى : أتساءل ، كيف تسكت وقد شاهدت بعينيك رجلاً لا ذنب له يسقط مضرباً بدمائه تحت مدية مجرم وحشى ؟ ...

الضمير الفنى : حقاً ... لقد كان منظرأ فنياً رائعاً ...
الضمير الإنسانى : إنى لم أتم منذ تلك الليلة ... ولا يمكن أن أنام حتى يقبض على الجانى الحقيقى ... وإنى أتوسل إليك أن

تريحنى وتساعدنى على تحقيق العدالة .. هلم بنا نخبر
البوليس .

الضمير الفنى : أنا ... لم أر شيئاً أبلغ عنه .

الضمير الإنسانى : إنك رأيت الجريمة من أولها لآخرها .

الضمير الفنى : إلى رأيها كفنان لا كشاهد إثبات .

الضمير الإنسانى : وما الفرق ؟ ...

الضمير الفنى : ألا ترى الفرق ؟ ...

الضمير الإنسانى : إنك رأيت على الأقل الجرم الحقيقى ، وتستطيع أن
تبوح باسمه .

الضمير الفنى : لن أبوح بشيء .

الضمير الإنسانى : الخلق القويم يدعوك أن تبوح ؛ لتنقذ متهماً بريئاً ،
وتقتض لذلك الحارس المسكين الذى هدر دمه فى
غير ذنب لإقيامه بواجبه الشريف .

الضمير الفنى : إنك تعلم أن الخلق القويم هذا شيء من شأنك

أنت ... أما أنا فلا أعرف غير العمل الفنى القويم ...

وإلى لم أدخل بين هؤلاء اللصوص باعتبارى مخبراً

سرياً يبلغ عنهم ؛ ولكنى دخلت بينهم بصفتى فناناً

يدرس أحوالهم ... وقد وثقوا بى وأطلعونى — لهذه

الصفة — على ما لا يحسرون أن يطلعوا غريباً عليه ،

فهل من حقى أن أخون هذه الثقة ؟ ...

الضمير الإنسانى : حقاً ... يالها من ثقة غالية ... تلك التى تنالها من

أيدي القتلة والجرمين ! ...

الضمير الفنى : الثقة هى الثقة ؛ سواء نلتها من شريف أو أثيم ... إن

قيمة الجواهر لا تتغير بتغير الأيدى التى تمنحها ...

الضمير الإنسانى : ما أبرعك فى صياغة الكلمات ... ولكن هذا لا يمنع

من أنك الآن فى نظر المجتمع والقانون مرتكب للذنب

لا يغتفر ؛ إن لم تبادر فتصحح موقفك .

الضمير الفنى : موقفى الآن صحيح ولا غبار عليه ...

الضمير الإنسانى : هذا رأيك أنت وحدك ... ولكن هب أنه قبض

عليك مع شركائك متلبسين فى مكان الجريمة ...

أكانت تشفع لك كل هذه الفلسفة ؟

الضمير الفنى : : هذا سؤال توجهه إلى القضاة ؛ لو أنه قبض علينا ...

ولكن الذى حدث حتى الآن هو أنه لم يقبض على

أحد منا ... ومع ذلك فالقضاء يعرف ظروف

اشتراكى فى هذا الأمر ، والبواعث التى دعت إليه ،

وهى كلها شريفة .

الضمير الإنسانى : أرجو منك ألا تتكلم عن الشرف ، لقد ظهر لى أننا

غير متفقين على معنى هذه الكلمة .

الضمير الفنى : تريد أن تقول : إنى لست شريفاً ؟ ...

الضمير الإنسانى : من الصعب أن أعدك كذلك وأنت تنام ملء جفنيك

مرتاحاً مطمئناً لا يزعجك صراخ ذلك الدم البرىء

الذى ينادى بإحقاق الحق وإقرار العدل ... إنك لا

تريد أن تخون السفاكين الذين استأمنوك ... وتريد

أن تخون المجتمع الذى وضع فى قلمك أمانة الدفاع

عنه ... أنت أيها الكاتب الحر ! ... فيم عملك
ورسالتك إذن إن لم تكن في النهوض ذاتدا عن حرية
الأفراد ودمائهم ، مناصراً للعدالة .. معيناً للحق
والقانون ١٩ ...

الضمير الفني : يالها من بلاغة ... أنت أيضاً تعرف كيف تؤثر في
النفوس بمثل هذه الكلمات ١٩ ...

الضمير الإنساني : أتستطيع أن تكذب حرفاً واحداً مما أقول لك ؟ ...
الضمير الفني : أنا لا أكذب ولا أثبت ... أنا أصور وأعبر
الشرف عندي هو في صدق التصوير والتعبير .

الضمير الإنساني : أهذا كل واجبك إزاء البشرية ؟ ...
الضمير الفني : هذا ليس بالشيء القليل ... ولأفسر لك الأمر باللغة
التي تفهمها :

« إن الكاتب الفنان يؤدي رسالته إلى البشر ويعاون
في إصلاح المجتمع بمجرد كشفه خبايا بيعاته المختلفة
بريشة صادقة ، ودراسة أسرار النفس الإنسانية
والغرائز البشرية ، وإبرازها للعيون والعقول ...
إن عملي يماثل عمل العالم الكيميائي وهو يدرس جرائم
الأمراض تحت مكروسكوبه ... لماذا لا تذهب إلى
هذا العالم وتقول له :

« اقتل هذه الجرائم في الحال فهي تستحق
الإبادة ؟ ... إنه لا شك يجيبك باسماً : ليس مهمتي
أن أبيدها الآن هكذا ... إنما ينبغي لي أن أعيش

بينها ، أراقبها وأسجل ظواهرها ، فإذا عرفنا
خواصها وخيرها وشرها ، أمكن العلماء فيما بعد أن
يستخرجوا لها العلاج ، ومنها الترياق .
أنا أيضاً أقول لك الآن :

دعنى قليلا بين جرائم المجتمع من أهل الشر والعهر
والفجر ، أضعهم تحت « مكرسكوى » ثم أعيش
بينهم أرقبهم ، وأدون ما يبدو لى منهم .

الضمير الإنسانى : لكنهم يعيشون فساداً كما تعلم ؟!

الضمير الفنى : المكلفون بمطاردة الجرائم هم رجال الصحة ورجال
البوليس ... أما رجال العلم والبحث ؛ فهم
يحافظون على نماذج جرائمهم فى المعامل .

الضمير الإنسانى : آه ... إذى ، لأعجب كيف أن شريفاً مترفعاً مثلك
يستطيع أن يرى القبح والفساد ، وأن يعيش راضياً
مطمئناً بين هذه المناظر والظواهر ١٢ ...

الضمير الفنى : هنا بالضبط نبل مهمتنا ... ألا ترى ذلك العالم الذى
يحقق جسمه بلقاح الجرائم ويعرض حياته كلها
للخطر من أجل الرغبة فى البحث والاستكشاف
خدمة لعلمه وللإنسانية فيما بعد ١٣ ... نحن أيضاً
معشر الكتاب والفنانين ، نصنع أحياناً مثل ذلك فى
سبيل الفن والمجتمع والبشرية ...

الضمير الإنسانى : قد يكون هذا حقاً ... ولكن برغم كل ذلك أرى
واجبك كمواطن شريف أن تبلغ البوليس ...

الضمير الفنى : واجبى عدم التبليغ ...
الضمير الإنسانى : بل الواجب أن تبليغ ؛ كى لاتعطى الناس ... القدوة
السيئة ...
الضمير الفنى : ليس للناس أن يقتدوا بالفنان فى كل تصرفاته ... كلا
لن أبلغ ...
الضمير الإنسانى : بلغ ...
الضمير الفنى : لن أبلغ ...
واضطرب رأسى تحت ضربات تلك المعركة العنيفة ،
فارتيمت على فراشى أطلب النوم تخلصاً من عذاب
نفسى وما يدور فيها من حرب ضروس ...
ولكنى لم أغمض جفنأ طول ليلى ... ولم يفتردوى
فى أذنى لحظة بهاتين الكلمتين الملعونتين « بلغ ... لا
تبليغ ... بلغ ... لا تبليغ ... » .

حمارى ومنظرى

قال لى حمارى وهو يتأمل جندياً شاباً ، مر بنا فى طريقه ولا ريب إلى
ساحة القتال ، ولفت أنظارنا بهاء طلعتته :
— انظر إلى هذا الجندى الفاتن !... ماذا عليه بربك لو أعطاك رأسه
تفعل به أنت هنا الأفاعيل ، وأخذ رأسك القبيح هذا ليموت به فى الميدان
الغرى ؟...

فلم أرد عليه ... فتلك مسألة طالما فكرت فيها من قبل بينى وبين
نفسى ... نعم ... طالما نذبت سوء حظى ونصيبى وبكى واشتكيت ؛
لأن السماء خلقتنى هكذا شكلاً وموضوعاً ... ولكن فكرت وتأملت ،
وقلت عن نفسى ما قال الفيلسوف « باسكال » عن « كليوباترا » :
« لو أن الله جعل لى أنفاً أصغر من أنفى هذا لتغير وجه حياى كله أجمل
تغيير ... ولكن الله ضمن على مثلى بهذه المنحة الصغيرة وهى لا تكلفه كثيراً
ولا قليلاً ... »

و كنت كلما ذهبت إلى حلاق وأبصرت إلى جانبى رجلاً بديع
القسمات أخطب السماء قائلاً :

لكأنك يا رى قبل أن تخلق هؤلاء المحظوظين قد وضعت بين أيديهم
صناديق مملوءة بمختلف أصناف الأنوف والشفاه والأذان والعيون ؛
ليختاروا من بينها ما لذ لهم وطاب ... أما أنا وأمثالى فينبذ إليهم ما بقى بعد

— ١١١ —

ذلك في قعر الصناديق من « كناسة » أيدى أصحاب الحظوة والنصيب ... قلت ذلك كثيراً ورددته طويلاً ... وإذا أنا أسمع ذات ليلة صوت ملاك من الملائكة يهبط على وأنا بمفردي في حجرتي صائحاً بي :
— « فضحتنا ... السماء ضجت من تشيعك وتشهرك !... »

— عفواً يا سيدنا الملاك ...

— اسمع يا أستاذ ... لقد جئت إليك لأحقق كل طلباتك ؛ حتى لا تتهمنا بعد ذلك بالتحيز أو المحسوبية أو غير ذلك من الصفات غير اللائقة ... ما رأيك لو خلعنا عنك هذا الشكل الذى لا يعجبك ، وأعطيناك غيره كما تشاء وتحب ؟...
— وكيف يحدث ذلك ؟...

— تموت ثم تولد مرة أخرى في ثوب جديد ... وإن لك علينا عهداً وميثاقاً أن نفتح بين يديك كل تلك الصناديق التى تتحدث عنها ؛ لتختار أنت أولاً ما يحلو لك قبل كافة مواليد العالم .

— ومن يضمن لى إذا مت إن أولد من جديد ؟...

— عجباً ... أو تشك في وعد أهل السماء !...

— كلا ... ولكن هل أنت تفعل هذا بإذن ؟...

— بالطبع ... وهل يحدث شيء بغير إذن المولى العظيم !...

— إن الله حقاً لغفور رحيم ... وافرحتاه ... إنه سيعطينى كل ما أريد ...

— كل ما تريد وكل ما تتخير لنفسك ...

— هذا شيء جميل ... اجلس إذن يا سيدنا الملاك ولتحدث قليلاً ... ولا بأس من أن تشير على بما ينبغي أن أختار ... فأنا أخشى أن تبهر عيني

عند فتح الصناديق ، فلا أستطيع أن أميز الجيد من الرديء ... إلى أذكر
سوء اختياري دائماً لألوان « الكرافاتات » و « الجوارب » ... وحيرتي
كلما فتح لي صندوق منها لانتخاب أحسنها ... وإلى لأغرق في ترددي
مرة ثانية إلى أن ينتهي بي الأمر إلى تخيير أقبحها وأرذلها دون أن أدري أو
أنتبه ...

— أو تريد مرة أخرى أن تحملنا مسؤولية اختيار أنفك وفمك ؟!! ...
لا ... لا يا سيدي الأستاذ ... أو نسيت أنك منذ قليل كنت حضرتك
تطعن في ذوقنا ، وتتهمنا في نوايانا ؟!! ...

— حاشا لله ... أنا لم أطعن ولم أتهم ... إنما كنت أتظلم
وأستعطف ... ولقد تفضلتم فاستمعتم إلى ظلامتي ، فأكمل فضلك معي
وامكث نتبادل أطراف الحديث ...

— مكثت ... تكلم ... إلى مصغ إليك أيها الأستاذ ...
— أيها الملاك ... ما رأيك في أن أطلب أن يكون لي شكل « كلارك
جيليل » ... ؟

— بديع جداً ...
— أليس لك اعتراض ... فلتتفق من الآن ... والشرط نور ...
— موافق جداً ؛ — بل أكثر من ذلك — أحب أن ألفت نظرك إلى أن
من حقك — بناء على اتفاقنا هذا — أن تطلب ما شئت ، لا من حيث
الشكل وحده ؛ بل الأخلاق أيضاً ... ثم الثروة كذلك ...
— عجباً ... الأخلاق والثروة ؟ ...
— ولم لا ؟ ...

— إذن فأنا أطلب أن تكون لي ثروة « روكفلر » ...

— ١١٣ —

— معقول جداً ...

— أليس كذلك ؟ ...

— نعم ... وأخلاق من ؟ ...

— آه ... حقاً ... دعنى أفكر قليلاً ... أظن أنه لا يوجد خير من أخلاق « غاندى » ... نعم ... إلى أطلب أن تكون لى أيضاً أخلاق غاندى ...

— عظيم جداً ... شكل « كلارك جيبيل » وأخلاق « غاندى » وثروة « روكفلر » ...

— ألا تظن أن هذا كثير ؟ ... إلى أبالغ بلا شك ... إنها قلة ذوق منى ... إلى أستغل عطف السماء أكثر من اللازم ..

— كلا يا أستاذ ... مطلقاً ... لا شىء بكثير على قدرة الله ... إن الله إذا شاء أعطى بغير حساب ...

— اللهم شكراً ... أنا الذى طالما تمنى أن يلغى الحساب من الوجود ساعة تمتد يد الله نحوى بالعتاء ... ها هى ذى الساعة أقبلت ... — ألك طلبات أخرى ؟ ...

— لا يا سيدى الملاك .. أو بقى شىء يطلب : شكل « كلارك جيبيل » وثروة « روكفلر » وأخلاق « غاندى » ... أأريد أن أنهب الكون ؟ ... يا للمعجزة ... إلى سأغدو أعجوبة ولا شك فوق هذه الأرض ! ... إلى سأصنع العجب العجاب ...

— سوف نرى ...

— وهل هناك شك فى أنى سأملك من الوسائل ما أصنع به

الأعاجيب ؟ ...

(حمارى قال لى)

— أى نوع من الأعاجيب ؟ ... إنا لم نتفق بعد على اسمك وعملك ؟ ...

— اسمى وعملى ...
— بالطبع ... يجب أن يكون لك اسم وعمل فى حياتك الجديدة ...
— حقاً ... هذا ما نسيت أن أفكر فيه ...
— ثم يجب أن تكون لك جنسية .. أمثل « جيل » و « روكفلر » أمريكياً ، أم مثل « غاندى » هندياً هندوسياً ... أم ...
— هندياً هندوسياً ... ما هذا الكلام أيها الملاك ... ومتى أتعلم هذه اللغة ... لا ... لا يا سيدى ... بسط كل هذه الإجراءات ، و اتركنى كما أنا مصرياً ، وليكن اسمى « توفيق الحكيم » كما أكون الآن ...
— لا بأس فى ذلك ولا مانع لدينا مطلقاً ... وعملك ؟ ... هل تريد أيضاً أن تبقى كاتباً كما أنت ...
— طبعاً ... طبعاً ... وهل يمكن أن يكون « توفيق الحكيم » شيئاً آخر فى الحياة غير ذلك ...

— آه ياسيدى الأستاذ ... سوف نرى ... سوف نرى ...
— نرى ماذا ؟ ... إنك تخيفنى بهذه اللهجة المبطنة بالشك والريبة ...
— لا تخف ... إنى ما جئت لأخيفك ... إنما أنا هنا الآن لأنى لك ما تشتهى ... ولكنك أردت أن تتجاذب أطراف الحديث ، وقد جرننا الكلام إلى ما يعنينى وإلى ما لا يعنينى ... وإنى لأرى الفضول يدفعنى إلى أن أوجه نظرك إلى أمر ... هل تسمح ؟ ...
— العفو يا سيدى الملاك ... تفضل ... وجه نظرى إلى حيث شئت ...

— ١١٥ —

— هل تتصور ما سوف يحدث غداً يا «توفيق الحكيم» وقد أصبح لك شكل «كلارك جيبيل» وتصوف «غاندى» وثروة «روكفلز» ؟...
— ماذا سيحدث ؟...

— تخيل ... تخيل يا سيدى الروائى ...
— تخيل أنت يا سيدى الملاك ...

— إذا سمحت لى ، فأبى أقول لك : إن الذى سيحدث هو أن شكلك الجديد الجميل سوف يجعل كل الجميلات يرتمين على أقدامك ...
— الله يسمع منك بجاه النبى !!!...

ولكنك ... حيث أن لك تصوف «غاندى» فإنك لن تلتفت إليهن ... وستنقع من الحياة كلها بتلك «العنزة» وتحلب من لبنها وتشرب ...

— وهل هذا معقول !...

— وعند ذلك تنصرف عنك الجميلات بإئسائات ساخطات ، متسائلات عن كنه ذلك المخلوق الغافل عن جماله ، القانع بعنزته وصومعته وخياله ...

— معهن حق ... هذا مخلوق يستحق الشنق !...

— هذا هو الجمال مع التصوف ...

— لا ... يا سيدى احذف التصوف من فضلك ...

— إذن فليكن الشكل «كلارك جيبيل» مع أخلاق من ؟...

— أخلاق أنا تكفى ...

— أخلاقك كما هى الآن ؟! ... عظيم ... إذن فلتكن أنت بالشكل

الجميل وثروة «روكفلز» ... أتدرى ماذا سيحدث ؟... ستحيط بك

جماليات الأرض حبا في صورتك وطمعا في ثروتك .

— أهلا وسهلا !... وأنا لا أتمنى على الله ولا عليك أكثر من ذلك ...
— ولكن ... بما أنك تريد أن تبقى كاتباً روائياً ... فأني أظن من
الصعب عليك أن تجد وقتاً تتخلص فيه من أذرع النساء ؛ لتجلس أمام الحبر
والورق ... وإذا وجدت الوقت فلن تجد الدافع الذى يحفزك إلى
العمل ... أين في تاريخ الأدب والفن ذلك المليونير الوارث الذى يحنى
ظهره ليكتب أو يخلق ... إن لذة الفنان هى فى أن ينتج ويقوم بتجابه بعد
ذلك بالذهب أو بالمجد ... هو الذى يوجد المال بفنه ... أما إذا وجد المال
قبل ذلك عن غير طريق فنه ، فإن نصف لذة الخلق الفنى تضيع ...
ونصف الحافظ على الإنتاج يذهب ... المليونير الذى أصبح فناناً عظيماً غير
موجود ... ولكن الموجود هو الفنان الذى قد يستطيع بفنه أن يكون
مليونيراً ...

— آه يا سيدى الملاك ... إذن لا ضرورة لثروة « روكفلر » ؟! ...

— فكر فى الأمر يا سيدى الأستاذ ... ربما كنت غير مصيب ...
فشعرون الفن تعرفها أنت أكثر منى ... إني — كما تعلم — لست فناناً ... أنا
ملاك فقط ...

— العفو ... العفو ... إن رأيك فى الحقيقة فيه شئ من الصواب ...
إننا لا نتج فى الفن من أجل الثروة ؛ أو على الأقل ليس من أجلها
وحدها ... ومع ذلك فما ألد طعم المال الذى يأتى ثمرة الفن ... حقاً ...
إني لأحس هذا الشعور دائماً ما أتفه المال الذى يأتينى من غير طريق
فنى ...

— أرايت اللذة التى تحرم نفسك إياها بطلبك ثروة تأتيك من

السماء ...!

— نعم ... نعم ... احذف ثروة « روكفلر » ...
— إذن فليكن لك فقط ما طلبت ؛ شكل « كلارك جيبيل » ...
— وهذا يكفيني ، ولا أطلب غيره ...
— عظيم ... ستبقى أنت كما أنت ، ولكن في صورة جميلة ، وطبيعي
أنك ستكون محبوباً من الحسان ... هذا لا مفر لك منه ، ولا حيلة لنا
فيه ...

— وما الضرر يا سيدى أعزك الله ؟ ...
— لا ضرر ... ولكن ...

— ولكن ماذا ... صار حنى بربك وارحمنى ...
— فك ؟ ... أبقى هو فنك أم يصبح فن رجل آخر .. إنك تعلم أكثر
منى أن الفن يتغير بتغير طبيعة القلب الذى يخرج منه ... إنه كالماء الذى
ينبثق من الينابيع ... فهو حار إذا نبع من بقعة الزلازل والبراكين ، بارد إذا
صعد من أرض الأمن والاطمئنان ...
— لم أفهم بعد ...

— لعل الأصح أنك لا تريد أن تفهم ... لكن لا بأس من أن أوضح
لك ، ولن آتى بكلام من عندى ... حسبى أن أسوق إليك كلمة أنت
نفسك قائلها وواضعها على صدر كتاب من كتبك : « إن صاحب الحياة
السعيدة لا يكتبها ... بل يحياها » ...
— تريد أن تقول إنه إذا كان لى شكل « كلارك جيبيل » وحياته
السعيدة فإنى سأحياها ولن أكتبها ...
— لست أنا الذى قالها ؛ بل أنت الذى قلتها ونشرتها ...

— ومن أدراك أنى لم أخطئ ولم أغلط ... أنا رجل كثير السهو والغلط ... لماذا لا أجرب ، دعنى أجرب يا سيدى العزيز ... ماذا يضيرنا لو جربنا ... إن التجربة وحدها هى التى تلهمنى وتهدينى ... ولقد عزمت على أن أجرب بنفسى كل شئ ، وأن أهبط وأرتفع ، وأنهنض وأقع فى أجواء الحياة والمجتمع ، فامنحنى شكل « جيبيل » ولا تحرمنى هذا الطلب الوحيد عافاك الله وأبقاك ...

— لا تتحدع نفسك .. أو اخدعها وأنا غير مسئول عن النتيجة ... خذها منى كلمة صادقة : إذا تغير شكلك تغير تفكيرك وتغيرت نظرتك إلى المجتمع والحياة ، وأصبحت شخصاً لا علاقة له بتوفيق الحكيم ؛ لا من بعيد ولا من قريب ...

— أحسن ... وأنا لا أريد أن تكون لى بحضرته أى علاقة ...
— هذا شئ آخر ... ولكننا اتفقنا من مبدأ الأمر على أن تحتفظ باسمك وشخصك وعملك ...

— وبعد ؟ ...
— وبعد فإن الله لم يترك شيئاً للمصادقة ... إنه خلقك هكذا لتنتج فناً هكذا ... فإذا تغير أنفك تغير فنك ! ...
— وبالاختصار ... أيها الملاك ...

— بالاختصار أيها الأستاذ ... ليلتك سعيدة ، وأحسن ظنك بحكمة ربك الذى لم يخلق شعرة من شعر رؤوسكم عبثاً ...
وهكذا انتهى الحوار بينى وبين الملاك المفضل ، وأنا كما أنا لم أنل شيئاً ولم أربح شيئاً ... وتحرك الملاك ليرتفع من حجرى عائداً إلى السماء ... فصحت به مستوقفاً :

— ١١٩ —

— لحظة واحدة من فضلك ... يظهر أن الحائل بيني وبين كل خير هو
هذا الفن المزعوم ، أنا يا سيدى متنازل عنه ...
— تنزل عنه من أجل شكل جميل ؟! ...
— المسألة فى نظرى تستحق المفاضلة ...
— أنت وما تريد ... ولكنها أنانية منك أن تضحى عملك الذى تؤدى
به خدمة عامة فى سبيل صفة شخصية تنال بها متعة خاصة ...
— أنانية ... أنانية ... أنا راض بهذا الوصف ... لكن غير وئى ... أنا
طالب التغيير ... أنا حر فى نفسى ولا أحد شريكى .
— لك شريك ... هو وطنك ... فإذا وافق أهل بلادك على أن يؤخذ
من بينهم « فنان » ليستبدل به « دون جوان » فلا مانع لدينا من إجراء
عملية الاستبدال ...
وهكذا عقد لى الإجراءات بدل تبسيطها ... وارتفع سريعاً قبل أن
ينتظر منى جواباً ... وتركنى وحدى كما كنت أمام ورق وحبرى
وحمارى ... لم أتقدم أو أتأخر ...

حمارى وصورتى

دخل على حمارى يقول متعجباً :

— بلغنى اليوم أن صورة لك « زيتية » أو « باستيل » لست أدرى على التحقيق ، قد بيعت بمائة جنيه ! ... فمن هو هذا المثرى المسرف المتهور الذى أقدم على دفع هذا الثمن فيك ؟! ...
فقلت له هادئاً :

— هذا المثرى المسرف المتهور ؟! ... هذا ما أزعج لك عنه الستار بعد قليل ...

و لأبدأ القصة من بدايتها فأقول لك :

— إني كنت جالساً ذات يوم حيث اعتدت الجلوس ، وإذا مصور أقدر مواهبه هو « صلاح طاهر » جاء يقترح على رسم صورة لى كما صنع للعقاد ، وأراني نسخة فوتوغرافية للوحة العقاد ، فقلت له :
« هذا حقاً بديع ، ولكن العقاد له من حسن سمته ما يستحق التصوير ، ومن عمق حسه ما يستوجب التعبير ، أما أنا فماذا يغريك ؟! ... »

وقصصت عليه حكاية نقلت إلى عن مثال خطر له أن ينحت لى تمثالاً ، ولم يكن قد رآنى ، فسأل عن مكانى ، فوصفوه له ، فجاء ومر

أمامى دون أن أشعر ، ثم عاد إلى أصحابه يقول لهم فى خييه أمل :
إنه بعد أن شاهد شكلى عدل عن صنع التمثال ... ولكن هذا المصور لم
يخذ حذو زميله النحات ، وأصر على عزمه ... ونظر ملياً إلى جلستى
بعصائى وقال :

« لا تتحرك ... هكذا أضعك على لوحى كما أنت الآن ... »
وبدأ عمله بالفعل بعد أن هوّن على كل مشقة ، وأعفانى من كل
كلفة ، وتركنى أسبح فى ملكوتى — كما يقول — وأنسى نفسى
وأنساه ...

وفرغ من الصورة ... وكان الشرط الذى بيننا قبل أن يبدأها هو أن
ينصرف بها بعد إتمامها ... وقد عجب لذلك أول الأمر ... ولكنى
سألته :

« ألم يتفق لك أن صورت حماراً » ولا مؤاخذه « أو حصاناً أو
غراباً ؟ ... » .

فقال « اتفق لى كثيراً » ...

فقلت : « هل كنت تعطى هذه الصورة لأصحابها المذكورين ؟ » .

فقال : « بالطبع لا » ...

فقلت : « أنا أيضاً أفعل معى ذلك » ...

فوافقنى كل الموافقة ... ولما عرف فيما بعد أنى أعيش مجرداً من كل
طرف أو تحف أو ذكريات ... حتى كتبى التى أنشرها لا أحتفظ بنسخة
منها لنفسى عذرى ... ثم قال :

— إنى فى الحقيقة كنت عازماً على عرض هذه الصورة للبيع فى معرضى

الذى سأقيمه قريباً ...

— للبيع ؟ ... ومن هو هذا المجنون الذى يشتريها ١٩ ...

— طبعاً لن تكون امرأة ... هذا مفهوم ...

— إلا إذا اشترتها لتبصق عليها صباح مساء ...

وانصرف المصور بالصورة .. ونسيت أمره وأمرها ... وانتهى خبرها عند هذا الحد ... وإذا الصاوى يخبرنى ذات يوم أنه رأى اللوحة معروضة فى ستوديو الفوتوغرافى « خورشيد » ، وأنه أعجب بها إعجاباً شديداً ... والصاوى صاحب ذوق فنى سليم بالفطرة والسليقة ، وإنه ليبلغ أحياناً فى حبه لاقتناء كل جميل من التحف والصور مبلغ التهور ... ففى حجرته صورة لـ « جوزفين بيكر » ليست سوى مجرد نسخة عن أصل معروف دفع فيها عشرين جنياً ... ولقد علمت أنه كان فى باريس يشتري ما يفتنه من التحف بالتقسيط ، إذ كان طالب علم يعوزه المال ولم يكن بعد صاحب أرض تدر عليه العسل والعنب والقول السوداء ... فلما أثنى على الصورة صدقته ... ثم عرجت بالحديث إلى مجرى آخر ... فلقد احتدم بيننا منذ يومين خلاف حول أمر غاظنى منه كل الغيظ ، وأطلق لسانى بتأنيبه أعنف التأنيب ... ذلك أنه كان قد نوى شراء وقادة أو « ولاعة » سجائر للجيب ، رآها فى « فترينة » جواهرى معروف ثمنها ٢٨ جنياً ؛ فاتهمته بالسفه الذى يوجب الحجر ، فلم يرد ... وإذا به ذلك اليوم يصارحنى بأنه لم يقو على إغرائها ؛ فاشترها ... وأخرجها من جيبه مغتبطاً وأوقد بنارها سيجاره وأنا أنظر إليه على « نار » ... فما أن رآنى على هذه الحال حتى ابتسم وقال :

— ١٢٣ —

— تسمى هذا سفهاً وإسرافاً وجنوناً ... فما بالك لو عرفت ما هو أدهى ؟ ...

— ماذا أيضاً ؟ ... لم يبق إلا أنك اشتريت لامرأة جوارب بمائة جنيه ...

— دعها مفاجأة ... لن أقول لك الآن ...

وتحدثنا في أشياء أخرى ... وتشعب بنا الحديث ... وقبل انصرافنا قال :

— إلى قد أعددت لك بعد غد وليمة عشاء ...

— وما الموجب ؟ ...

— أليس من حقى أن أحتفل بك ؟ ...

— إياك أن يكون غرضك أن تقترض منى نقوداً ؟ ...

فقهقه عالياً ... وافترقنا ... ومضى اليومان ، وذهبت إلى وليمة الصاوى ... فماذا وجدت ؟ ... وجدت مائدة منصوبة بألوان الطعام والشراب ... ولكن لم يكن هذا هو المقصود ... فقد كان بيت القصيد تلك المفاجأة التى سبق إليها التلميح : تلك صورتي معلقة في صدر المكان ، محاطة بإطار بديع من خشب الأرو النفيس ... وإلى جانبها مصورها صلاح طاهر يقول لى :

— هذا هو المشتري : الأستاذ الصاوى ... دفع فيها مائة جنيه ، فضلاً عن الإطار الذى كلفه عشرة جنيهات ... ومنحنى فوق ذلك حق عرضها في المعرض ؛ لمجرد العرض ...

فغمغمت كالخالم — « المشتري ١٩ » ...

فقال الصاوى باسماء — « المجنون » ...

فى الحق أنى فوجئت ... وقد أسفر الموقف عن جد لا هزل فيه ...
وقد تأثرت فعلا كما تأثر معى صديقنا الزيات — صاحب مجلة الرسالة —
وكان حاضراً — وتركنا المزاح ، وواجهنا الأمر بعين أخرى ...
واستأنف المصور قائلا :

إن الصاوى — وهو يدفع الثمن نقداً وعدداً دون أن يساوم أو يمارس —
كان يخشى شيئاً واحداً ، هو عدم ارتياحى أنا لاحتفاظه هو بالصورة ،
ومنشأ هذا القلق هو علمه بأن صورتي الزيتية التى صنعها لى « صبرى »
منذ عشرة أعوام ، قد اشترتها الحكومة لوضعها فى متحف الفن الحديث ،
فهو إذن كان يحسبني أفضل لرسمى الجديد ذلك المصير المجيد ... وهو
موافق على هذا التفضيل ، ومستعد أن ينزل عن ملكيته للوحة إذا كانت
تلك إرادتى ... فماذا أقول فى كل ذلك ؟ ... لقد كانوا يتحدثون بهذا
حولى وأنا شاردت فى عالم آخر ... لقد خيل لى أنى لست فى مصر ، بل فى
أوروبا ... فهناك نجد أمثال هذا التقدير من الزميل للزميل ... فهناك
تسمع حقاً أن صورة « ويلز » تزين حجرة « برناردشو » وأن « موروا »
يضع كتاباً عن زميله « فاليرى » ليسر على قرائه فهم ما دق من آرائه ...
أما فى مصر فما نعلم إلا أن فلاناً طعن فى زميله فلان ... وأن هذا الكاتب شتم
ذاك ... وقد اعتنقت صحافتنا هذا الأسلوب ، فجعلت تغرى
شخصيات الفكر. والسياسة بعضهم ببعض للمباريات العلنية فى أحدث
ألوان السباب والإقذاع والإسفاف ، حاسبة بذلك أنها تسر قراءها ، كما
كان العوام يسرهم قديماً تنافر الديوك وتناطح الخراف ... حتى فسدت

— ١٢٥ —

أذواق قرائنا وانحطت مشاعرنا ، وسفلت نفوسنا ، وأصبحنا نحن أهل الشرف ننظر إلى العاطفة الرفيعة — إذا ظهرت — كأنها أعجوبة الأعاجيب ، وإلى العمل النبيل — إذا فلت — كأنه من الخوارق التي نستكثرها على طبيعتنا ... هذا هو المرمى الذي حفزنى على ذكر هذا الموضوع فالناحية الخاصة منه ليست سوى وسيلة ومغزى للجانب العام ... إنه درس ومثال أرجو أن يعيد إلى قلوبنا الثقة بأن في بلادنا أحياناً روحاً لا يقل سموً عما في غيرنا من البلاد العظمى ...

حمارى والنفاق

قال لى حمارى ، وقد رآنى أتهيأ للسفر ذلك الصيف إلى رأس البر :
أتذهب وحدك ؟...

فخجلت منه ودعوته ؛ لأن الوفاء يأتى أن أتركه يصلى حر القاهرة
وأمضى أنا بدونه إلى المصايف ... ولقد نزل مثلى ضيفاً معزراً مكرماً على
« عشة » أحد الأصدقاء ، وأفرد له مكان بجوارى ... وأصبح ينعم بهواء
البحر مثلنا ... ويذهب معنا كل صباح إلى خيمتنا ، التى نصبت على
الشاطئ ، وينظر كما ننظر إلى أفواج المصيفين والمصيفات تغدو وتروح
بألوان ثيابها الزاهية المختلفة ، كأنها معروضات الفترينات ، قد وضعت
فيها محركات تسيرها أمام أعيننا فوق الرمال ... وكان يحلو لى أن أغرق
صامتاً فى مقعد بحرى طويل مريح ، وكنت قد أوصيت حمارى
بالسكوت ؛ فنحن هنا للراحة لا للكلام ... وقد أذعن لرجائى فلم ينبس
بحرف ... إلى أن جاء ذات يوم إلى « البلاج » رجل من معارفنا ، له جسم
قد ترهل ، وكرش قد برز كأنه « فنتاس » غاز ، وهو يرتدى
« الشورت » مع قميص قصير الأكمام فقلت له :

— يالك من رشيق ... يا لها من رشاقة ...!

وهنا لم يتألك الحمار ، وهمس قائلاً لى :

— أحقاً تراه كذلك ؟...

— ١٢٧ —

فقلت بصوت مرتفع سمعه الرجل مغتبطاً :

— طبعاً أراه كذلك ... ولماذا لا أراه كذلك ؟! ...

فهمس الحمار لى وهو يتأمل قوام الصديق وقده من رأسه إلى قدمه :

— كيف لا أرى أنا ما تراه أنت ؟! ...

فقلت له مغيظاً :

— لأنك أنت حمار ...

فأجابنى هامساً :

— ولماذا تقول لأنك أنت منافق ؟! ...

وكان الصديق قد ابتعد ولحق بمضيفى ، وقد اطمأن إلى حسن

منظره ، وسارا معاً على الشاطئ ، بعد أن يمسا من ذهابى معهما ... فأنا

لأحب المشى ... وانفردت بحمارى أصبح فيه :

— أنا منافق ؟! ...

— مهلا ... مهلا ... أنا لم أقصد إهانتك ...

— افهم أيها الحمار أن هذا ليس نفاقاً ، ولكنها مجاملة ...

— مفهوم ... إنها مجاملة ... والمجاملة هى النفاق الصغير ... هى

كالجحش بالنسبة إلى الحمار ... ومع ذلك فأنا لا أستهجن النفاق على

الإطلاق ... إني تأملت نفسى ذات يوم وتأملتك وقلت : ما الفرق بيننا

معشر الحمير وبينكم معشر الآدميين ؟! ... نحن نأكل الفول ، وأنتم

تأكلون الفول ... وإذا كنا نحن نحبهم ممزوجاً بالتبين أو النخالة ، وأنتم تحبونهم

بالزيت أو الزبدة ، قتلك مسألة مزاج ... ولا يجب أن نسميه فرقاً

جوهرياً ... إنما الفرق الأساسى حقاً بيننا وبينكم : هو أنكم تعرفون

« النفاق » ونحن لا نعرفه ... وقد عللت نفسى ومنيتها بحلم جميل ؛ هو أن

تتاح لى الفرصة أن أرجوك يوماً وأتوسل إليك أن تعلمنى النفاق ...
— عجباً !... من علمك هذا الأسلوب الهادئ ؟...١٩

— إلى لست أهزأ ... إلى أقول الجد ... تلك عقيدتى :

لو أمكنتنى تعلم النفاق وإدخاله فى فصيلة الحمير لا نقلبنا مخلوقات
مثلكم ... إلى مؤمن كل الإيمان بهذا المبدأ ... وإلى أعمل سراً على تنفيذه
منذ زمن ... فلا تقف فى وجه مطامعى وآمالى ... خذ منى كل شىء ،
وأعطنى النفاق !...

— ماذا جرى لك ؟... هل جنت ؟... هل أثر فى رأسك هواء البحر
النقى وطعام مضيفنا الشهى ؟...١٩

— رأسى بخير ... ولقد سألتك شيئاً سوف يحدث انقلاباً فى تاريخ
بنى جنسى ، ولكنك تبخل به علينا وتضمن ، فلن ألح أو أثقل عليك بعد
الآن فى الطلب !...

— أمرك غريب ... أبخل عليك بماذا ؟... أهو شىء عزيز نفيس
أستكثره على مثلك ؟... هذه أول مرة أسمع فيها أن للنفاق قيمة يحرص
عليها الإنسان !...

— أما أنا فقد سمعت أن النفاق له قيمة كبرى فى الأسواق العالمية ، وأن
أجود أنواعه يوجد فى مصر ، كما يوجد فيها أجود أنواع القطن ...
— يظهر أنك استقيت معلوماتك من مصادر خبيثة ...
— لقد قيل لى : إن النفاق الطويل التيلة ...
— ماذا تقول ؟...١٩

— نعم ... إنه كالقطن ... ألا ترى هذا ؟... ولعل السبب فى تفوقه
وتميزه بطول تيلته أنه يمتد إلى الطرفين : الفرد والمجتمع ؛ فمثلاً من الجائز أن

يعتق الفرد رأياً مخالفاً للجماعة ؛ فتنهض ضده الجماعة فيقبع في داره صامتا ... وهذا ما يحدث في كل بلد آخر ... أما هنا فيحدث غير ذلك ... فلقد أخبروني أن أفراداً قاموا ينادون بأفكار حرة فاتهمهم الناس بالإلحاد ؛ فلم يكنفوا بالصمت بل قاموا في اليوم التالي يحملون المسابح الكهرمان ويرتدون العمام الخضر ... وآخرين عرفهم المجتمع من أهل الخمر والسكر فلم يكتفوا بالتوبة الصامته ؛ بل راحو يترعمون حركات الحض على الورع . ونساء يرتكبن في السر الفجور ، وينادين في العلن بالفضيلة ... وسياسيين قد خلق الله لكل منهم وجهاً واحداً ؛ فصنعواهم لأنفسهم وجوهاً عدة يستقبلون بها كل حكومة تقوم أو كل أزمة وزارية تطراً ... وأسراً وعائلات توزع فيما بين أعضائها المبادئ والأحزاب ، كما يوزع الله بين عباده القسمة والأرزاق ، ومرعوسين يدهنون الرؤساء على حساب الدولة ، ورؤساء يراءون الشعب على حساب المصلحة ؛ وسيدات يردن العبث واللهو ويقلن للناس إنه البر والخير ... وأهل دين يملئون الصحف ضجيجاً حول الأخلاق ، ويدقون طبلا ضد الرذيلة ، وما يقصدون في سريرتهم غير التظاهر والإعلان ... ورجال تقوى يأمرون الناس بالعفة ، ويستثنون أنفسهم وذوهم .

هذا بعض ما يتعلق بالطرف الأول وهو الفرد ...

أما الطرف الثاني وهو المجتمع فإليه إنفاقه أيضاً :

فقد بلغني في ذلك أنه ما من مجتمع في غير مضر يستقبل المجرم الخارج من السجن بالموسيقى والمزمار كما يستقبل الحاج القادم من الحجاز ! ... وهذا المجتمع يشسمئز من اللص والآثم ، والشرير والفاجر ، ولكن لو ابتسم الحظ لواحد من هؤلاء فنال سلطة ، أو أصاب ثروة ، فسرعان ما (حمارى قال لى)

يبتسم له المجتمع أيضاً ، ويستقبله استقبال الأبطال ، بل إن المجتمع
يعرف التاريخ المحجل لهذا المليونير ، والماضى المزرى لذلك السياسى ، فلا
يمنعه ذلك من حملهما على الاعناق ...

هكذا يرائى المجتمع الفرد ، ويدهن الفرد المجتمع ... ولا يدري أحد
أيهما مصدر النفاق ... لذلك قيل : إن النفاق يصل أحدهما بالآخر ، فلا
نعرف أن النفاق ممتد بينهما يربطهما بخيوطه المتينة ... وهذا سر وصفه
بالتيلة الطويلة ... فما قولك فى هذا ؟ ... وهل تترانى أملت
بالموضوع ؟ ...

— إلى أراك بجزراً فياضاً ، وأدهش كيف تسألنى أن أعلمك النفاق
وأنت واسع الاطلاع فيه على هذا النحو ؟ ...

— لا موجب للدهشة ؛ فأنت تعرف أن العلم النظرى شىء ووسائل
التففيذ شىء آخر ... فكل بلد يدرس تاريخ الثورة الفرنسية ، ولكن ليس
من السهل أن تحدث ثورة فرنسية فى أى بلد ؟ ... وأنا كذلك درست
تاريخ نفاقكم ، ولكن ليس من اليسير أن أحدث مثله فى مجتمع بنى
جنسى ! ...

— لست أرى فى الأمر صعوبة ... إنه فى غاية البساطة ... أنا مثلاً
صاحبك الذى تخافه وتهابه ، ولك عنده مصالح ومآرب ... انظر إلى
وجهى : ألا تراه جميل الصورة ؟ ...
— أبداً ...

— لا تنظر بعين رأسك ؛ انظر بعين مصلحتك ! ...
— لست أعرف لى سوى العين التى فى رأسى ...
— هذه العين افقأها إذا كنت تريد أن تتعلم النفاق ! ...

— ١٣١ —

— أفقاً عيني وأصير أعمى ١٩ —

— هذا هو الشرط ...

— وبماذا أرى الأشياء ؟ ...

— بعينك الأخرى : عين مآربك ...

— إذن لو أردت إدخال النفاق في مجتمع بني جنسى ، ينبغي لي أن أمر

جميع الحمير أن تفقأ عيونها التي في رؤوسها ؟ ...

— في الحال ...

— وأن تحول مجتمعنا إلى مجتمع من العميان ١٩ ...

— بالضبط ...

— وهل تظن دولة الحمير تقبل ذلك ؟ ...

— ولم لا ؟ ... إذا كنا نحن قد قبلناه ...

— اسمح لي أن أقول لك ...

— صه ... أعرف ما ستقول ، ولا داعي للإهانة ! .. وهنا كان

الصديقان قد أقبلتا عائدين ؛ فأومأت إلى حمارى بالصمت ... وغمزت

له بعين رأسي وأنا أقول مشيراً إلى صاحبنا المترهل منشداً :

أهلاً وسهلاً بالرشاقة كلها

بالشورت والأكام فوق الكرش ! ...

حمارى والكفاح

قال لى حمارى وقد ذهبنا نمضى الشطر الأخير من الصيف فى الإسكندرية ، وننعم ساعة الأصيل بالسير الهوينا على الكورتيش :
— الحق ... إلى مغتبط ها هنا ... أين المشى المريح فوق هذا الأسفلت الناعم من المشى فى رأس البر ، فوق الرمال التى كانت تغوص فيها حوافرى !؟ ...

— صدقت ...

— إلى أراك لا تكره المشى هنا ...

— أصبت ...

— عجباً ... ما بالك ساهماً مطرقا ! ...

— أسكت ! ... إنك تخرجنى مع أصدقائى ... كلما مشيت مع

صديق فى الطريق ظن الناس أنه حمارى ! ...

— وما ذنبى أنا إذا كان الناس يريدون أن يتملقوا أصدقاءك ؟ ...

— أغلق فمك من فضلك ، ودعنى أنسى وجودك إلى جانبنى لحظة ! .

— سبحان الله فى طبعك ... ما هذا المزاج العكر ، والهواء جميل خال

من الرطوبة هذا العام ، والبحر صاف ، والغيد فى الإسكندرية

حسان ... والنساء فى السراويل والبيجامات بأحمرهن وأبيضهن كأنهن

جوقة « بلياتشو » فى « سيرك » متنقل ! ...

— ١٣٣ —

- صه ... لا تحدثنى عن النساء ...!
- أأست أنت الذى دعاهن إلى ارتداء هذه السراويل ١٩ ...!
- تلك فكرتك أنت أيها الحمار ...!
- أبعقل أن تخطر ببالي أنا فكرة حشر مثل هذه الأجسام البضة المائعة فى هذا النوع من الثياب ؟ ... انظر إلى هذه المرأة البدينة وقد صرت لحمها المترهل صراً فى البنطلون ، وهو يأبى أن يتماسك ؛ فصارت كأنها طبق « الماظية » متفكك سائل ؟ ...!
- لا تبالغ ...
- انظر بعينك ... ما عليك إلا أن تنظر إلى هذا السرب السمين .
- أنا لا أنظر إلهم قط ...
- يا للعجب ...! ما من مرة خطرت قربنا حسناء إلا ورأيت عينك تكاد تأكلها أكلا بلحمها وعظمها وثوبها ...!
- كذاب ...!
- أتقسم ؟ ...!
- أقسم ... إلى لا أنظر غير نظرة خاطفة ، وهذا حقى شرعاً كما هو وارد فى كتب الفقه والدين ؛ فقد جاء فيها : « لك فى الشرع نظرة واحدة لاحتمال أن يكون القادم أسداً » ...
- وهل من المحتمل أن يقبل علينا أسد فى هذا الكورنيش ١٩ .
- اخرس يا حمار ولا تجادلنى ...!
- هذا ليس جواباً مقنعاً ...
- أفهم أن لكل زمان مخاوفه ، ولكل مكان مخاطره ؛ وتلك كانت المخاوف ، فى عهد العرب والبادية والصحراء ... أما فى عصرنا الحاضر فقد

— ١٣٤ —

تغير نوع الخطر ، وإن لم يتغير المبدأ ؛ فبدل الوحش الهاجم أصبحت
السيارة المسرعة ..

— لست أرى سيارة أماننا ، ولكنى أرى دبابة ...

— دبابة ١٢... أين هي ؟ ...

— تلك المرأة المقبلة ؛ فلنخل لها الرصيف ولنهبط إلى الطريق ، إذا أردنا
لأنفسنا السلامة ...!

— هذا أيضاً كما ترى نوع من مخاطر العصر الحديث ...!

— والكواعب الفاتنات ، كأنهن نسيم البحر ، أعارته يد السحر أودية
من أجساد الحور الخالدات ...!

— ما شاء الله ...! الحمار انقلب شاعراً ...!

— أجب ولا تراوغ ... ما تقول في هذه الباقة المقتربة من الفتيات ،
ذوات المناديل الدمقسية المختلفة الألوان فوق شعورهن ، من هو البستاني
العبقري الذى نسق هذا البهاء ؟ ...! أهى المصادفة التى جمعت بينهن على
هذا النحو ؟ ...! أم هو التدبير السابق فيما بينهن ، والاتفاق المبيت على أن
يصبحن على الناس متفتحات فى هذه الألوان الزاهيات ؟ ...! تكلم ...
انطلق ...! ما هذا السكوت ؟ ...!

— هذا كذلك خطر من صنف آخر ...

— بل هى متعة ... بل هى فتنة ... بل هو التعميم ...

— عجباً ... ماذا جرى لك أيها الحمار ؟ ...!

— يا إلهى ...! ما الذى صنعت فى عامى من جلائل الأعمال لأستحق

هذا التصييف البديع ...!

— ما هذا القول السخيف ؟ ...! أو كل هؤلاء « المصيفين » قاموا فى

عامهم بأعمال يستحقون من أجلها هذه الراحة الناعمة ؟ ...
 — لست أتكلم عن هؤلاء « المصيفين » ... إنما أتكلم عن نفسى
 بصفتى حماراً من أسرة الحمير ...
 — أنعم وأكرم ! ...

— لا تهنأى ، ولا بجنسى ؛ بل اهزأ أولاً بنفسك وبجنسك ! ... فنحن
 فصيلة قد اشتهرت بالكد والجد ، لقد عرفت ظهورنا أشق الأعمال ، ولم
 تأنف من حمل أخس الأحمال ... ما من ظهر فينا رفض « غبيط »
 السماد ، وما من واحد بيننا تدمر من كثرة العمل وطول ساعاته ، أو من
 رداءة العلف وقلة دسمه ... ما نحن إلا الجلد والعزم والصبر قد صُورت
 مخلوقاً حياً ، لنكون قدوة لأمثالكم من الكسالى المترفين ... ولكنكم لا
 تبصرون ولا تريدون أن تفتحوا أعينكم حتى على خيبتكم المائلة ! ... ما
 من واحد فيكم يريد أن يعرق ليستحق لقمته ... موظفكم ينظر إلى ساعة
 الانصراف ولما يبدأ فى العمل ، ويهمه المرتب والترقية ولا يعنيه الإنتاج ،
 فإذا نقل إلى « الصعيد » هاج وماج ... وطلابكم يريدون أن يجتازوا
 الامتحانات بغير درس ، ولا يعينهم العلم فى ذاته ؛ بل يطلبون شهادة
 تغطى فيهم الجهل ، وتفتح لهم الخزائن وتصعد بهم الدرجات ...
 وعمالكم يفكرون فى زيادة الأجر وإنقاص العمل ، ولا يهتمون بالإتقان
 ولا بمصالح « الزبون » ورؤساؤكم يعينهم أن ينشر عنهم أنهم قاموا بكذا
 ونهضوا بكذا ، ولا يهمهم بعد ذلك قيام حقيقى أو نهوض ، وشبابكم
 أصبح مثله الأعلى يتلخص فى كلمتين : « سيارة وفتاة » ولا يعنيه كيف
 يحصل عليهما ؛ بل كل أمله وهدفه أن يظفر بهما من غير جهد ولا
 جهاد ... إن شعار الكثيرين فيكم اليوم هو :

— ١٣٦ —

« أن السماء يجب عليها أن تمطر ذهباً وفضة ونحن قعود » ...! الحلم
الذهبي للجميع الآن هو الثراء والإثراء بغير مجهود ... إن الحرب قد
حققت بالفعل لبعضكم هذا الحلم ولكن ماذا أنتم صانعون في زمن
السلم ؟ ... بأي سلاح تواجهون التنافس العظيم على الإنتاج والصراع
الشديد على الأرزاق ؟ .. أبدأ « الجهد الأدنى والغنى الأسنى » الذى
اعتنقه الكل فيكم من شبابكم إلى شببكم ...! ؟
— حقاً تلك مشكلة لا أدرى لها حلاً ! ...

— حلها بسيط ...

— ما هو ؟ ...

— أن تعتنقوا مبدأ فصيلتى : « لا راحة بغير عمل ، ولا لقمة بغير
عرق ، ولا ثروة بغير إنتاج » ! ...
— نعتنق مبدأ الحمير ...! ؟
— ولم لا ؟ ...

— فى الحق إن التطاحن فى الغد هائل ... وإن حرب السلام ستكون
علينا أشق وأعنف من حرب الدماء ... ولقد أردنا أن نجنب أنفسنا
الويلات فى كل ميدان ... وأن نهرب بجلدنا من وخزة الدبوس ولذعة
« الناموس » ... ولكن ...

— ولكن آنا الأوان لتعرفوا معنى الصبر والجلد والعمل ...

— سنعرف ، وسترغمننا الحياة غداً على أن نعرف ...

— اليوم خمر وغدا أمر ... هلم بنا إلى ستانلى ، وسيدى بشر ،
وجلیم ! ...

— مهلاً ... ضميرى غير مستريح ... وأنت المسؤول ... ماذا قدمنا

— ١٣٧ —

من عمل في عامنا لنكون جديرين بهذا اللهو والمرح ؟ ...

— قدمنا ...

— كم غيبطاً من السماد حمل ظهرك ؟ ...

— أنت تعرف أني لا أحمل اليوم سماداً ؛ بل أفكاراً ...

— يا له من تدهور ! ...

— لا تدهور ولا تقدم ولا تأخر ... ما الأفكار سوى نوع من

السماد ... وحامل الأفكار كحامل السماد ... وما أنت في الحقيقة غير

نوع من ... الحمير ! ...

— أشكرك ...

(حمارى قال لى)

همارى والجنة والنار

جلس همارى إلى جانبى ذات ليلة ... وكانت الليلة مقمرة ...
والسحب الرقيقة البيضاء لها هفيف يرى ولا يسمع كأنها أجنحة
الملائكة ... كان كل شىء من حولنا يجعل النفس تحلم أو تغوص فى أعماق
الخيال ... حتى همارى أطبق عينيه نصف إطباق ، وبدا عليه أنه يريد هو
الآخر أن يحلم ... ولم ألبث فعلاً أن سمعته يهمس قائلاً :

— ماذا بعد الموت ؟ ... الجنة والنار ؟ ...

— طبعاً ...

— وأنت فى أى مكان منهما ستكون ؟ ...

— من باب النواضع أقول لك فى النار ...

— لو كان لك خيال حقاً لتصورت الآن مصيرك ... ما قولك لو
حاولت الآن اختراق حجب الغيب ، لتصف لي ما سوف تجد فى النار من
المعارف والأشخاص والأشياء ...

فسكت لحظة أفكر ... وقد أثار فى نفسى قول همارى رغبة حقيقية فى
تخيل ذلك ... ولم يمض قليل حتى صحت فيه قائلاً :

— اسمع !.. إني أتخيل الآن ثلاثة مناظر تجرى على هذا النحو :

المنظر الأول

(جنة الخلد بأشجارها وأطيّارها وفاكهتها وكوثرها
والصحفى أحمد الصاوى محمد جالس القرفصاء ،
كئيباً حزيناً مفكراً مسنداً رأسه الأصلع إلى جذع
شجرة دانية القطوف ...)

. إحدى الحور : (تمر بالصاوى فتصيح) عجباً « ما قل ودل »
هنا ؟ ...

الصاوى : (يرفع رأسه وينظر إليها) أيدشك ذلك يا آنستى ؟ ..
صدقت والله ... أنا نفسى مندهش ... نعم ، « ما قل
ودل » هنا ، بلا « أهرام » ولا « مجلتي » ولا مطبعة ولا
« كليشاهات » ... حتى ولا عزبتى التى كانت على
ترعة المنصورة ...

الحورية : أراك ضجراً ...
الصاوى : لقد أكلت من الفاكهة حتى تلفت أحشائى وشربت من
الكوثر حتى انتفخ بطنى ، وتسلفت الأشجار ،
وجريت وراء الأطيّار ، أتعرفين أيتها الأنسة أن شجر
المانجو هنا هو من نفس نوع المانجو الذى غنيت بزراعته فى
عزبتى ؟ .. لا بد أنهم جاءوا بالبلور من عزبتى آه .. إنها
لذكرى حلوة ولكن ما بعد كل هذا ؟

الحورية : (باسمة) أغازلت الحور ... ؟

- الصاوى : طبعاً ... هذا أول ما حصل ...
- الحورية : اسمعى أيتها الأنسة ... « يستدرك » ... أيتها الحورية ! ... لا شئ يسعدنى فى هذه الجنة إلا أمر واحد : إصدار « مجلتى » هنا كالمعتاد ، نصف شهرية ... (ينهض بقوة) لقد اختمرت الفكرة فى رأسى طويلاً ... إن أهل الجنة فى أشد الحاجة إلى مجلة تقدم لهم خلاصة أدب العالم وقصصه ومسرحياته ، وروائع الأدب المصرى ... كلا ... لم يعد هنا مصرى ولا فرنسى ... لا بأس ، نبحت فيما بعد عن الألفاظ التى تلفت الأنظار ، وعن وسائل الإعلان التى تجتذب المشتركين والمشاركات ... على أنى أبدأ بتوجيه النداء إلى الذين انضموا إلى أسرة مجلتى فى الدنيا ، فهم أولى بالاستمرار فى المساهمة ومن بادر منهم تمتع بالاشتراك المخفض ، مع حفظ الحق فى الهدايا ، بمثل ما كان يتمتع به فى الدنيا ...
- الحورية : (باسمه) حتى يعلم المشترك أنه « مع الصاوى يكسب دائماً » !.
- الصاوى : (باسمه) فى الدنيا والآخرة ! ...

المنظر الثاني

- (الصاوى بين يدى سيدنا رضوان عليه السلام على مقربة من باب الجنة ... (...) .
- رضوان : (كالتخاطب لنفسه) ماذا اسمع ! ... مجلة فى الجنة ؟! ...
- الصاوى : وما الضرر ! ... إنها لفكرة بديعة يا سيدنا رضوان ! ...
- إن هذه الجلسة ستكون لسان حال المؤمنين والمؤمنات ... نعم ... خصوصاً الأخيرات من الحور الجميلات ، فأنى كنت فى الدنيا أعرف كيف أكتب فأرضى النساء ...
- ثق أن مجلتى هنا سيكون لها رواج وانتشار ، وستطرد الملل من الصدور ... إلى قد أعددت كل شىء لإصدارها فى ثوب فشيّب محلاة بالصور ذات الألوان ... إنه لا ينقصنى سوى الكتاب والأدباء الذين كانوا يمدوننى بمقالاتهم فى الدار الفانية .
- رضوان : ألم ترهم هنا ؟ ...
- الصاوى : لم أر منهم واحداً هنا ...
- رضوان : قد خائف ولا ريب النظر رغم منظارك السميك ... من تريد منهم وأنا أدلك عليه ؟ ...
- الصاوى : أريد الحاج ! ...
- رضوان : أى حاج ؟ ... الجنة مكتظة بالحجاج ...
- الصاوى : الحاج هيكلك ! ...

- رضوان : (يفكر قليلا) هيكَل ؟ ... صدقت ... إنه ليس هنا ...
- الصباوى : سبحان الله ... مؤلف « حياة محمد » ؟! ...
- رضوان : لا تعترض يا هذا ولا تكفر ! ...
- الصباوى : اللهم لا اعتراض !... (لنفسه همسا) ترى ماذا صنعت أنا من الحسنات حتى أدخلوني ههنا ...
- رضوان : أتريد أن تسأل عن أحد آخر ؟ ...
- الصباوى : أريد أن أسأل عن « العقاد » مؤلف كتاب « عبقرية محمد » ؟ ...
- رضوان : العقاد ليس هنا ...
- الصباوى : يا للعجب !... يا للعجب !...
- رضوان : عمن تريد أن تسأل أيضا ؟ ...
- الصباوى : أريد أن أسأل عن « توفيق الحكيم » فقد كان ألف في دنياه كتاب « محمد » ...
- رضوان : توفيق الحكيم !... ليس هنا كذلك هذا المخلوق ...
- الصباوى : سبحان الله ... سبحان الله !...
- رضوان : هات غيره !...
- الصباوى : دلنى إذن على « طه حسين » فقد كان ألف كذلك في دنياه « على هامش السيرة » ...
- رضوان : طه حسين !... ليس هو أيضا هنا ...
- الصباوى : اللهم عفوك ورحمتك !...
- رضوان : لا تعترض يا هذا ولا تكفر !...

- الصباوى : (همساً) لا اعتراض ولا كفر ... قد فهمت الآن ...
ما أدخلنى أنا اللجنة إلا كتاب « باريس » ! ...
- رضوان : بم همس ؟ ...
الصباوى : يا سيدنا رضوان ! ... لى عندك رجاء ... أتأذن لى فى
الذهاب إلى النار مدة نصف ساعة فقط ثم أعود ؟ ... !
- رضوان : ماذا تصنع هناك ؟ ...
الصباوى : أقابل هؤلاء الأربعة المساكين ، وأتناول مع كل منهم
« فنجان قهوة » أفتح به الأعداد الأربعة الأولى من
مجلتى فى عهدها الجديد ...
- رضوان : ملدا تقول ؟ ... تتناول « فنجان قهوة » فى الجحيم ! ...
الصباوى : (فرحاً) نعم ... فنجان قهوة مع « ... » فى
الجحيم ! ... يا له من حديث صحفى عجيب مبتكر لم
يسبق له مثيل فى صحافة العالم ... نعم ... سأفتح به
الصفحة الأولى ، وأزينه برسم هزلى بريشة مسيو
« سانتيز » ! ...
- رضوان : (فى عجب) أو تحسب يا هذا أن فى الجحيم « قهوة »
من بن ! .

المنظر الثالث

(فى الجحيم — الصاوى بين الملهب والدخان ، يمشى
بخطى وثيدة يتصفح الوجوه ...) .

الصاوى : (يرهف السمع) أسمع ثرثرة !... يخيل لى أنى أعرف
صاحب هذا الصوت الجمهورى ... فلاأقرب منه ...
عجبا !... هذا الدكتور طه حسين !... ترى ما سبب
صخبه وضجيجه ... ؟

طه حسين : (يصيح فيمن حوله) ، نعم .. إلى غير راض عن
الحياة هنا ... إنها فاترة راکدة لا يظهر فيها نشاط ولا
إنتاج فحسب ؛ بل قد يمضى العام كله ؛ بل قد تمضى
الأعوام كلها دون أن يظهر فى الأفق حدث من الأحداث .
وهذا الركود مؤلم حقا إذاقارناه بذلك النشاط الغريب
الخصب الذى ظهر فى حياتنا الأدبية فى الدار الفانية ...
فقد كان هذا النشاط قيما حقا ، لفتنا إلى أنفسنا ، ولفت
الناس إلينا ، فإذا نحن نرى من أنفسنا ما لم نكن نرى من
قبل ... نشهد ابتكاراً فى الرأى ، واجتهاداً فى التفكير
 وإنتاجاً فى الأدب ، وخصومات تثار حول هذا كله
فنضيف ابتكاراً إلى ابتكار ، واجتهاداً إلى اجتهاد، وإنتاجاً
إلى إنتاج، لا نكاد ننظر فى صحيفة أو مجلة إلا رأينا مظهراً
لهذه الحياة الخصبة. وكان الرأى العام نفسه يشار كنا فى

هذا النشاط ؛ فكانت الجماهير ترضى حيناً وتسخط
أحياناً ، وتؤيد تارة وتقاوم تارة أخرى ...

(جماعة من أهل الجحيم تفصد أجسامهم عرقاً ،
ويتأوهون من عذاب النار يلتفتون نحو طه ...)

الجماعة : اتق الله يا شيخ !... ألا ترى ما نحن فيه من عذاب ...
أى إنتاج وأى نشاط فى هذا البلاء ؟...

رجل من الجماعة : اتركوه ... إنه أديب !...

الجماعة : أو ليس الأديب آدمياً ؟... ألا يشعر هذا الرجل بألم
السعير وعذاب الجحيم !...

طه حسين : إنما الجحيم حقاً هو العيش بين هؤلاء الهامدين !...

(يذهب الأديب)

الصاوى : (يسرع خلفه) يا دكتور !... يا دكتور طه !... إنه

يسرع فى خطاه ولا يسمع صوتى من هرج الناس ...
عجباً ! هذا رجل يشبه العقاد ؛ بل هو العقاد بعينه ...
نعم هو بقوامه المعتدل المديد كالرمح الصلب .. ما باله
يسير هكذا يتصفح جوانب الطرقات كأنه يبحث عن
شئ ...

العقاد : (يصبح نافذ الصبر) مكتبة يا ناس !... ألا توجد هنا

مكتبة واحدة ؟. ما هذه المخلوقات التى لا تقرأ ؟ وأنا
الذى جاء النار برضاه واختياره ، حاسباً أنه يجد فيها
الجبابة من الفلاسفة والمفكرين ، والقيم من الكتب
والمكتبات .

- الصاوى : يا أستاذ عباس !... أيها الأستاذ العقاد ...
 العقاد : (لنفسه) إنه الجحيم ... إن هذا هو الجحيم المقصود ..
 إن المكان الذى لا يوجد فيه اطلاع ولا تعرف فيه قراءة ،
 ولا يسمح فيه بتفكير لا بد أن يكون هو الجحيم !...
 الصاوى : أيها العقاد !... ما باله لا يسمعنى ... لقد انصرف ...
 لقد اختفى !... آه ... لقد تعبت ... وأخشى أن
 تفوت نصف الساعة فيقفل دونى باب الجنة ...
 عجباً !... هذا رجل كهيكل ... كأننا به يبحث عن
 أحد بين الجموع نعم ... هو الدكتور هيكل بعينه !...
 ترى عم يبحث ؟...
 الصاوى : (ينادى) يا دكتور هيكل !...
 هيكل : (لنفسه يائساً) لست أجد هنا صديقاً ولا أديباً !...
 أين زملاؤنا ؟... لماذا لا يتقابل هنا الآداب ورجال الفكر
 والقلم !... إن عذاب النار — بالغاً ما بلغ — لا يؤلم
 نفسى قدر ما يؤلمها سبب إدخالى هذا المكان .. لا سيما
 وأنا الذى ...
 الصاوى : يا حاج !... يا حاج !... إنه لا يسمع ندائى !...
 هيكل : (ماضياً فى كلامه) أنا الذى قمت بالدعوة للإسلام
 ولحمد بما لم يقم به ألف أزهري !... ومع ذلك فلنصبر
 صبراً جميلاً ... (يصيح بأعلى صوته) ...
 ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا
 صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ ... !

(جماعة من الأزهريين بقربه ساخرين صائحين): ولو!..

هيكل

: (ملتفتاً إليهم) : إن بعض الناس ما زالوا يرتابون في
صدق وإخلاصى ... أولئك هم الحمقى ... أو من في
قلوبهم مرض !... فلتترك لهم المكان ...

(يتعبد)

الصاوى : (فى أثره) يا هيكل !... يا حاج هيكل !... لقد انطلق

مسرعاً ولن أستطيع اللحاق به !... (يلتفت إلى إنسان
عن كتب فيصيح) يا للغرابة !... هذا « توفيق
الحكيم » يمر هناك بين اللهب ملوحاً بعصاه مرتدياً معطفه
الصوفى الأسود ، وهو ينظر يمينا وشمالا خائفاً من وجود
« تيار هواء » !...)

توفيق الحكيم : (يبحث حوله) أين « موزار » ؟... لكم تقى إلى

رؤية هذا الموسيقى فى الدار الآخرة !... لكن من
المستحيل أن يكون هنا صاحب تلك الألحان
السماوية !. لقد كان — حتى فى دنياه — على اتصال
بالفردوس. نعم « موزار » الإلهى هو من أهل الجنة بلا
مراء !...)

الصاوى

: (يخطو نحو توفيق الحكيم صائحاً) يا عدو المرأة !...)

(جماعة من نساء النار يسمعن صوت الصاوى فيقبلن

فى هرج)

النساء

: (صائحات) أين هو عدو المرأة ؟...)

الحكيم : (يلقي عليهن نظرة شاملة) ما كل هؤلاء !! ... لم يكن عندى ريب فى أن تسعة أعشار أهل الجحيم من النساء !... !

النساء : خسئت !... لا شىء يعزينا ويثلج صدورنا مثل إدخالك السعير !... !

الحكيم : وأنا لو لم أجدكن هنا ؛ لاختلط على الأمر وحسبت أنى فى الجنة !... !

النساء : (يلتظن أحجاراً ملتهبة يقذفه بها) خذ إذن جزاءك .
الحكيم : صدقت الآن وآمنت أنى فى الجحيم !... !

(يتعد عنهن هارباً)

الصاوى : (صائحاً) يا توفيق الحكيم !... إنه لا يسمع ندائى ... ما بالهم كلهم كأنهم صم لا يسمعون ندائى !... يا عدو المرأة !... إنه فر هارباً وهن فى أثره بالحجارة !... لا أمل لى فى مخاطبة واحد من هؤلاء الأربعة :
فلأرجع من حيث أتيت قبل أن... !

(يسير نحو باب الجنة)

رضوان : (يصيح) فات الوقت !... وانقضى نصف الساعة ، وأغلق دونك باب الجنة أيها الكافر بنعمة ربه !... لقد سعيت إلى النار بقدميك شوقاً إلى أهلها ، فالبث فيهم واجرع معهم ما شئت من « فناجين القهوة » !... !

جماعة من أهل النار : (يتساءلون) يا للعجب !... من هذا الإنسان الذى

— ١٤٩ —

أدخل الجنة فتركها وجاء بقدميه إلى النار!؟ ...

: (من الجماعة) لا بد أنه صحفي !! ... رجل

: (صائحاً متضرعاً) يا سيدنا رضوان !... عفوك الصاوى

ورحمتك !... لقد شغلنى عن الوقت حرصى على مقابلة

الكتاب وجمع المقالات !... ولكن رحماك !... افتح لى

الباب هذه المرة ، فأنى قد تبت إلى الله وإليك ... ولك

على عهد وميثاق ألا يذكر لسانى كلمة مجلة فى الجنة بعد

اليوم ... فأنى سأعيش كبقية عباد الله الصالحين ، آكل

الأثمار وأسامر الأطيار وأغازل الحور !...

فبراير ١٩٤٥

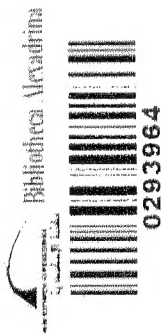
فهرست الكتاب

صفحة

١١ من هو « حمارى » ؟
١٦ حمارى والطوفان
٢٤ وهتلر »
٣٥ وموسولينى »
٤٣ ومؤتمر الصلح »
٥٠ وحزبه »
٥٨ والذهب »
٦٥ والسياسة »
٧٢ والطالبة »
٧٩ والقاضية »
٨٥ وحزب النساء »
٩٠ وعداوة المرأة »
٩٥ والمحكمة »
١٠١ والجريمة »
١١٠ ومنظرى »
١٢٠ وصورنى »
١٢٦ والنفاق »
١٣٢ والكفاح »
١٣٨ والجنة والنار »

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السبعار وشركاه

رقم الإيداع : ١٩٢٤ / ٨٨
الترقيم الدولي : ٥ — ٠٣٥٥ — ١١ — ٩٧٧



الشمس ٢٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سميد جوده السحر وشركاه